الدكتور عماد الدين الخليل

المغول



دار ابن كثير

الطبعة الأولى
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

نحو مسرح إسلامي معاصر
(٤)

المغول

الدكتور
عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

قبل سنوات طويلة، طرحت الدعوة التالية (كضرورة) فنية في ميدان الأدب الإسلامي عامة، والمسرحي على وجه الخصوص: (.. ضرورة تحقيق قدر كبير من (التواصل) بين التاريخ والواقع، أي: بين الماضي والحاضر. أن يسعى الفنان إلى كسر الجدار الزمني لتعصير الواقعة التاريخية، أو لنقلنا ـ بالمقابل ـ إلى قلب التاريخ لمعايشة وقائعه، والتفاعل مع معطياتها.

(إن تحقيق هذا التداخل الزمني يمثل ضرورة فنية وموضوعية في الوقت نفسه؛ ضرورة فنية: لأنه يجعلنا نقف في قلب الواقعة التاريخية التي تملك حينذاك، ومن خلال التكنيك الفني المتمكن، قدرتها على التعبير والتأثير. وضرورة موضوعية: لأنه سيخرج الفعل التاريخي من سكونيته وأسره الزمني وتحفيته وتسطحه، ويعيد إليه الحياة كفعل دائم التدفق والتمخض، فعل يتحرك باستمرار لكي يصب في بحر وجودنا الراهن، فيغنيه، ويحفزه، ويجعله أكثر أصالةً بتلقيه الدم الحار من رحم تاريخه هو، وماضيه هو، فلا يغدو هجيناً.

(لقد تعامل كتاب الغرب وفنانوه الجادون مع تاريخهم، وبمجرد أن نلقي نظرةً متمعنةً على نتاجهم التمثيلي والمسرحي في هذا

المجال، فإننا سنجدهم يتجاوزون ـ في كثير من الأحيان ـ الوقوف السالب أمام الواقعة التاريخية، الوقوف الذي يسجل حركة التاريخ في جانبٍ ما من جوانبه تسجيلاً فوتوغرافياً، فلا هو يضيف شيئاً جديداً، ولا هو يسعى إلى إعادة تركيب الواقعة بما يجعلها أكثر تأثيرية من مجرد عرضها المتحفي الصرف. لقد تجاوزوا هذا الموقف؛ لأنهم لا يريدون أن يقدموا لنا عروضاً (تعليمية) عن تاريخهم، فلتلك العروض رجالها ومجالاتها المدرسية المعروفة، ولكنهم يسعون إلى تحقيق قدرٍ من التوافق بين رؤية الفنان البعيدة وأمانة العالم والتزامه، بين الذات والموضوع، بين ما كان وما هو كائن وما يمكن أن يكون. إنهم يتجاوزون عملية رصف الأحداث رصفاً عرضياً، لكي يتوغلوا باتجاه العمق؛ لاستجاشة كل القيم النفسية والتربوية؛ التي يمكن أن يحدثنا عنها الفعل التاريخي، وهو يتمخض في صيرورته الدائمة عن مزيد من القيم والمؤثرات والتشكيلات؛ التي تهم الإنسان المعاصر، وتلامس واقعه وأحلامه وأمانيه.

(إننا نقرأ، على سبيل المثال، (بكت) لجان أنوي و (الأرض كروية) و (ليالي الغضب) لسلاكرو و (أنطونيوس وكليوباترا) لشكسبير و (العادلون) و (كاليغولا) لكامي و (هنري الرابع) لبيرانداللو و(الذباب) لسارتر و (تاج على ميتة) و (مالا تستا) لمونترلان.. وغيرها.. فنجد أنفسنا أمام أنماط (حركية) من التعامل مع الواقعة التاريخية تتمثل فيها الشروط؛ التي يتحتم على الفنان المسلم؛ الذي يسعى إلى اعتماد التاريخ الإسلامي في بناء أعماله، أن يفيد منها ما

وسعته الإفادة، لا سيما وأن تاريخنا الخصب يتضمن من الوقائع والأحداث ما يمكن أن يمنحنا المزيد من الدلالات المكثفة، والقيم الموحية والمؤثرات؛ التي ترفض أن يأسرها زمان أو مكان.

(إن العمل الفني الذي يعتمد الأرضية التاريخية ليس - من جهة أخرى - ترفاً فكرياً، أو جمالياً محضاً، لكي يفصل التاريخ عن الواقع ويعرضه كما لو أنه عالم قائم بذاته لا يمنحنا الإجمالية (نسبية)، قد لا يكون لها أي تأثير تربوي فعال على تجربتنا الحية المعيشة. ومن ثم فإن تحطيم الفاصل الزمني، وتحقيق التواصل بين تجربتنا الماضية وحياتنا الراهنة، سيؤول إلى إغناء العمل الفني، وتجاوز حدوده الجمالية الصرفة إلى الفعل والتغيير والبناء.

(إن الفنان (المادي)، يمارس هذا الأسلوب وهو بصدد خلق مؤثرات فكرية وتربوية من خلال إبداعه الفني. ومعنى هذا أن يتحول تاريخنا إلى (أداة) تتداولها أيد (غريبة) لم تتواصل مع هذا التاريخ ذلك التواصل الطبيعي؛ الذي يرفض التزييف والتحريف. . إن تاريخنا يتحول على أيديهم إلى حاضرنا لكي يعانقه، لكنه - بعد أن يصل مرحلة اللقاء والعناق هذه - يكون قد أضاع هويته، وفقد شخصيته.

(وفي مقابل هذه الخطيئة، وكبديل عنها، يجب أن يتحرك الفنان المسلم، فيكسر جدار الزمن، ويصل بين الماضي والحاضر، بين التاريخ وبين الواقع، لكي يمنحنا، من خلال إبداعه الفني، القيم الكبيرة؛ التي تمكننا من تأصيل شخصيتنا، وحماية ذاتنا الحضارية في

مواجهة غزو فكري وتربوي، لن يلقي سلاحه قبل أن يمحو هذه الشخصية محواً، ويدمر هذه الذات تدميرا)[1].

مسرحية (المغول) هذه، محاولة للوقوف عند واحدة من (اللحظات) المؤثرة في تاريخنا، تحمل شحنتها الدرامية، وتمنح الكاتب المسرحي فرصةً طيبةً للعمل. إنها (اختيار) خارج نطاق المساحات التاريخية المبكرة؛ التي صنع منها الكثير من الأعمال الفنية إلى حد التكرار. وهي، فضلاً عن هذا وذاك، تتضمن العديد من القيم الفنية والإنسانية؛ التي تحقق تواصلها مع قرننا هذا، حيث يتحتم علينا جميعاً أن (نصمد)، أن نقاوم (الحصار المضروب).. ألا نستسلم بسهولة لجيوش المغول الجديدة القادمة من المشارق والمغارب. نصمد، مستكملين الأسباب، ونترك الباقي على الله، ذلك ما علمنا إياه رسولنا ومعلمنا عليه أفضل الصلاة والسلام.

يتساءل المرء وهو ينفض يديه من المسرحية: ماذا؟ لقد انكسرت الموصل، وهزم قائدها (الصالح).. لقد انطوى البطل، وهو يجابه تحدياً أكبر منه بكثير.. فأين المغزى؟!

والمغزى، يكمن ها هنا بالذات.. ففي تاريخ البشرية، وفي تاريخنا نحن بالذات، لحظات من التوهج، قد تمتد إضاءتها، وقد تقصر، وهي على كل الأحوال، ستنتهي - كفعل تاريخي - إلى

(١) انظر بالتفصيل بحث (نحو آفاق تربوية في عرض التاريخ الإسلامي على الشاشة الصغيرة) (ص ٧٥ - ١٠٤) من كتاب (مع القرآن في عالمه الرحيب) دار العلم للملايين، بيروت - ١٩٧٨م.

الانطفاء. ليس ثمة دوام في حركة التاريخ، إنها (المداولة)؛ التي تحدث عنها كتاب الله. . . التحول الدائم من صيغة لأخرى. . حكاية المسلسل الذي لا ينتهي من التوهج والانطفاء.

وما دام الأمر كذلك، فيكفي أن تشتعل الإرادة البشرية، أن يرد على التحدي، وأن يستجاب لأمر الله ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[1].

إن ما حدث للموصل، والمصير المفجع الذي انتهى إليه ملكها (الصالح)، يحدث اليوم، ولسوف يحدث غداً. . وإن مغول القرن العشرين، يحاصرون اليوم مدننا. . يشددون قبضتهم على مواقعنا وحصوننا. . يكفي أن نتذكر بيروت والمخيمات. . يكفي أن نمد أبصارنا إلى أفغانستان وأريتريا وأوغادين وأوغندا وكشمير والفيلبين. . لكي نعرف أن (المسرحية) لا تأسر نفسها في بيئة محددة في الزمان والمكان. . إنها دراما كل زمن مسلم وكل مكان. . قد تنتهي المقاومة بالانتصار، وكثيراً ما تحقق الوعد، وقد تؤول إلى الاندحار. .

ولكن، شرف الإنسان المسلم يظل ـ مع استكمال الأسباب وليس قبلها بحال ـ فوق احتمالات الربح والخسارة، إن مداه أوسع بكثير، وأبعد بكثير؛ لأنه مستمد من كلمة الله الباقية!

لقد انطوت صفحة الرعب المغولي، وخرج الإسلام نفسه منتصراً بعد إذ طوت إرادته المغول. . ولم يكن بمقدور الضمانات الجزئية

---

(١) سورة غافر الآية ٧٧.

والتفريط بالشرف أن تصنع الانتصار . . لقد صنعه ـ والحق يقال ـ كل الذين ضحوا من أجل ألا ينحني هذا الدين لأية وثنية في العالم . .

وكانت الموصل، وملكها (الصالح)، من بين من صنعوا الانتصار . . تلك هي (الحكمة)؛ التي يمكن أن يعثر عليها المرء وهو يتساءل عن مغزى المسرحية، وعن ارتباطها (الفني) (بالمعايشة التاريخية)، و(التعصير).

ترى، كم من اللحظات المؤثرة في تاريخنا الطويل، تحمل دراميتها ومغزاها، وتنتظر الأقلام؛ التي تصنع منها المزيد من الأعمال؟

 

(شخوص المسرحية)

الملك الصالح ركن الدين

إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ:	حاكم الموصل ٦٥٧ ـ ٦٦٠هـ.
علاء الملك:	ابن الملك الصالح
علم الدين سنجر:	قائد الملك الصالح
شهاب الدين أحمد:	رئيس ديوان الملك الصالح
الظاهر ركن الدين بيبرس:	سلطان المماليك في مصر والشام ٦٥٨ ـ ٦٧٦ هـ.
صندغون:	القائد المغولي الذي تولى حصار الموصل.
صدر الدين التبريزي:	أحد قادة الجيش المغولي لدى حصار الموصل.
تكودار:	قائد المنجنيقات المغولية.
الزين الحافظي:	طبيب شامي مملوكي التحق بخدمة المغول.

المندوب المغولي في الموصل.

أمراء وقادة وحجاب وجند وأهالي.. إلى آخره..

المادة التاريخية

استقيت المادة التاريخية لهذه المسرحية من المصادر التالية :

تاريخ مختصر الدول	لابن العبري	(ت ٦٨٥ هـ)
جامع التواريخ	لرشيد الدين الهمذاني	(ت ٧١٨ هـ)
ذيل مرآة الزمان	لليونيني البعلبكي	(ت ٧٢٦ هـ)
العبر وديوان المبتدأ والخبر	لابن خلدون	(ت ٨٠٨ هـ)
السلوك لمعرفة دول الملوك	للمقريزي	(ت ٨٤٥ هـ)
لابن العماد الحنبلي	شذرات الذهب	(ت ١٠٨٩ هـ)

المشهد الأول

(ضحى اليوم السادس من صفر عام ٦٦٠ هـ، دار المملكة المطلّة على نهر دجلة في مدينة الموصل، يتوسطها إيوان واسع مزين بأفاريز عريضة من الخط الكوفي، ينفتح على النهر من جهته الشرقية، وعلى المدينة من جهته الغربية. على أريكة واسعة في صدر الإيوان يجلس الملك الصالح أمير الموصل. وعند جداري الإيوان الشمالي والجنوبي، صفت أرائك أخرى، جلس عليها عدد من القادة والأمراء وكبار الموظفين).

الملك الصالح: (يرفع رأسه عن منشور مفروش بين يديه) إنهم قادمون إذاً؟

القائد علم الدين سنجر: يوم واحد، أو أقل، وتخفق راياتهم عند مشارف المدينة، على الطريق القادم من بغداد.

شهاب الدين أحمد: إذا أذنت لي أيها الملك قلت: إن الأمر في جملته، لا يحتاج إلى لحظة واحدة من التردد..

الملك الصالح: كيف؟

شهاب الدين أحمد: ما فعله أبوك رحمه الله.. الملك بدر الدين لؤلؤ.. إن الجميع يشهدون له بالخبرة والدهاء..

علم الدين سنجر: (بشيء من الانفعال) ولكن..

الملك الصالح: (يبتسم) دعني.. فأنا أولى الناس بالتحدث عنه!

شهاب الدين أحمد: لقد عرف كيف يختار الطريق المناسب، فكسب رضاهم، وجنب الموصل مصيراً مفجعاً.. إنها محنة سوداء.. الإعصار الذي يكسر من لا ينحني له ويدعه يمر..

علم الدين سنجر: (بالانفعال نفسه) الملك الصالح يريد أن يتحدث.. دعنا نستمع لرأيه.

الملك الصالح: دعه يا علم الدين، فإني أحب أن أسمع كل ما عنده.. كل ما عندكم أنتم جميعاً.. إن قراري الأخير، لا يمكن بحال أن ينفصل عنكم، أو يقوم على الظن والتخمين.. أريد أن أجمع المعلومات والتفاصيل، وأخبر الآراء ووجهات النظر..

علم الدين سنجر: ولكن ما سيقوله تعرفه جيداً أيها الملك..

الملك الصالح: هذه لحظات يتحتم أن تستعاد فيها الآراء مراراً..

شهاب الدين أحمد: بعض المسافرين الذين قدموا إلى الموصل اليوم، حكوا عن ضخامة جيش المغول، وإصرار قائده صندغون، على ألا يقف في طريقه شيء..

الملك الصالح: (بهدوء) ثم ماذا بعد؟

شهاب الدين أحمد: وأكدوا أنهم رأوا عدداً من الأمراء المسلمين، يزحفون مع جندهم بمعيته، إنني أعرف أحدهم جيداً، الملك المظفر الأرتقي، أمير ماردين..

الملك الصالح: أعرف ذلك..

شهاب الدين أحمد: أنا لا أقول: بأن علينا أن نحذوا حذوهم لكي نتجنب التهلكة، ولكن، قد يكون هناك طريق أكثر سلامة، يحفظ كرامتنا في الوقت نفسه..

الملك الصالح: **(بانفعال مكبوت)** أنا أدرى الناس بما فعله أبي، أتريد أن أحكي لك عن الوجه الآخر لما فعله؟ يبدو أنك لا تعرف عنه الشيء الكثير!؟ **(يلتفت إلى علم الدين فيبتسم هذا).**

شهاب الدين أحمد: ولكنهم قادمون أيها الملك، وليس ثمة طريق آخر..

الملك الصالح: اسمع.. لقد كنت بنفسي قائد الجند الذين أرسلهم أبي إلى بغداد ليعبر عن مساندته لهولاكو **(يبتسم بحزن)**، بغداد لم أجدها يا شهاب الدين.. لم أر الحاضرة التي كانت تحكم العالم لخمسة قرون.. صحيح أن عمرانها ظل شاخصاً كما هو.. ولكن وجهها، ملامحها، روحها،

كانت قد اختفت. الغزاة قتلوا الكثيرين من أهاليها. آخرون فروا أو اختفوا. فئة كبيرة هجرتها إلى الأبد.. وطغت على السطح وجوه جديدة ليست كلها مغولية، بل إن فيها من البغداديين أنفسهم، لكن وجوههم لم تكن تحمل أي طابع بغدادي.. وأنا أجتاز الكرخ، وأعبر الجسر ـ صوب مقر القائد المغولي ـ كنت أحس بالغربة تأخذ بخناقي، وبصوت الضمير المطوي في الأعماق يؤنبني، ويشعرني بالخزي.. أتدري يا علم الدين؟.. لقد حقدت في تلك اللحظات الصعبة على أبي.. وتساءلت: أكان عليه أن يرسلني على رأس جنده؛ لكي أدفع ضريبة الذلة للطاغية، فأزيد من أحزان بغداد؟ هل تدري يا علم الدين.. إنهم لم يكتفوا بذبح المسلمين، بل تجاوزوا ذلك إلى ذبح فكرهم.. لقد رأيت بنفسي آلاف الكتب وهي تطفو على سطح النهر، وتتحلل كلماتها في مياهه.. إنهم أذكياء ويعرفون ما الذي يفعلونه.. ليسوا مجرد برابرة، جفاة، كما تخيلناهم..

شهاب الدين أحمد: إذا ظللنا نجتر أحزاننا، لم نستطع أن نفعل شيئاً أيها الملك، إن الغضب يحجب عنا الرؤية الصائبة.. والخطر قريب، ربما يطبق علينا بعد

ساعات، منتظراً منا الجواب.. نحن الآن، بأمس الحاجة للرؤية التي لا يكدرها حزن أو ذكرى.

علم الدين سنجر: لكنها، بشكل من الأشكال، ضرورية لأن..

الملك الصالح: ماذا كنت تقول يا شهاب الدين؟

شهاب الدين أحمد: (كالمعتذر) لا شيء.. لا شيء..

الملك الصالح: إنني أعرفك جيداً.. لست أنانياً ولا جباناً، لكنه الحرص الذي علمك إياه العمل في الديوان لأكثر من عشرين عاماً!

شهاب الدين أحمد: إن التفريط بالدم ـ إذا أردت الحق ـ هو كالتفريط بالمال، بل أشد وأنكى..

الملك الصالح: لا يا شهاب الدين.. لا.. إنك تنظر إلى المسألة من جانب واحد.. وتبسطها بأكثر مما يجب.. إنك تتعامل مع التاريخ، كما تتعامل مع الحساب.. واحد زائد واحد يساوي اثنين.. التفريط بالدم، يساوي التفريط بالمال.. إن التاريخ أشد تعقيداً.. بل إذا أردت الحق، إنه أشد مكراً، ولن يكشف عن أوراقه لمن يكتفون بقراءة غلافه.. مطالعته من الخارج..

شهاب الدين أحمد: عفوك أيها الملك، فإنني لا أفهم ما تقول، ولكنني أتشبث بموقفي، وسأزداد به تشبثاً؛ كلما

اقترب دوي الطبول؛ الذي يعرف المغول كيف يرفعون درجته إلى الحد؛ الذي يفقد الإنسان معه أعصابه.. أيها الملك، إنه يتحتم علينا أن نتدارك الأمر، قبل أن نفقد أعصابنا.. لقد سمعت كثيراً عن قرع طبولهم.. على طول الطريق الشرقي؛ الذي اجتازوه من أعماق آسيا، ألقت مدن شتى بقيادها... استسلمت.. أما المدن التي حاولت أن تعصي أمرهم، فقد طووها..

الملك الصالح: ها قد عدت يا شهاب الدين إلى تنفيذ حساباتك وأرقامك على التاريخ.. إنني أسألك: ألا يمكن لمدينة ما أن تتصدى لهم.. تتحداهم وتعصيهم، فترغمهم على سماع كلمتها؟ هل من المحتوم أن تطوى كل المدن؛ التي تملك القدرة على أن تقول: لا، حيث يجب أن تقال؟

شهاب الدين: يا حضرة الملك...

الملك الصالح: (مقاطعاً) دعني أكمل حديثي، وأسألك أيضاً: المدن؛ التي لوت عنقها، هل ربحت كثيراً؟ إذا أبحنا لأنفسنا أن نأخذ بمنطقك كرجل مال وإدارة؟ أجبني، هل ربحت كثيراً؟

شهاب الدين: إذا أردت الحق..

الملك الصالح: سأجيبك أنا.. لا بما يطرحه علي عقلي وإيماني، ولكن، بما شاهدته بأم عيني.. لقد فعل أبي شيئاً من هذا القبيل، وأرسلني إلى هناك؛ لكي يحقق ربحاً ما.. أتدري ما الذي قاله لي هولاكو بالحرف الواحد؟

شهاب الدين: ولكن ذلك أمر مضى، وعلينا اليوم...

الملك الصالح: لا لم يمض.. لقد طبع بصماته على عقلي وأعصابي، وتغلغل بهدوء؛ لكي يستقر في الأعماق، ولن يمحوه إلا الموت.

شهاب الدين: ولكنني أخشى أن يكون قرارك اليوم، رد فعل لهذا الذي يعذبك.

الملك الصالح: أبداً يا شهاب الدين، وإلا، لما كنت قد جمعتكم. وها قد مضت ساعتان، ونحن نقلب الأمر على وجوهه لاتخاذ القرار المناسب، ولكنني، أؤكد لك مع ذلك، أن كثيراً من المواقف في تاريخ الإنسان، إنما اتخذت، رد فعل لسلوك ما، لعذاب، لعقدة مستعصية تفتك بالإنسان.. ولم تكن معظم تلك المواقف خاطئة، بل إنها كثيراً ما حققت المستحيلات.. ففي الملمات.. في الظروف الصعبة، في دائرة

الصراع غير المتكافئ بين طرفين، لا تكفي الحسابات الدقيقة وحدها لإيجاد الحل.. الجمع، والطرح، وحدهما، لا يكفيان يا شهاب الدين.. إن شيئاً ما داخل الإنسان، هو الذي يتحدث أحياناً، يقول كلمته، ويتخذ قراره. وقد يكون القرار مضاداً للحسابات الدقيقة، قد يكون خسراناً في منظور الجمع والطرح، ولكنه قد يخرج بالناس من المحنة، لا أستطيع أن أجد تسمية محددة لهذا الشيء.. قد يكون الإيمان.. قد يكون الإرادة.. وقد يكون الكرامة؛ التي تسكن تحت جلودنا.. الإباء؛ الذي حقنه ديننا في أوردتنا وشرايينا، نفخه في نسيج الروح..

شهاب الدين: **(يبتسم دون أن يقول شيئاً)..**

الملك الصالح: **(يلمحه)** أعرف.. أعرف.. إنك لا تؤمن بهذه الأمور.. **(يلتفت إلى علم الدين)** ماذا كنت أقول؟ ها.. لقد تذكرت، لقد قال لي هولاكو بالحرف الواحد، وملامح الغضب تحكم قبضتها على وجهه: **(أنتم بعد في شك من أمرنا، وما عرفتم نفوسكم يوماً بعد يوم، وقدمتم رجلاً، وأخرتم أخرى؛ لتنظروا من الظافر بصاحبه، فلو**

انتصر الخليفة وخذلنا، لكان مجيئكم إليه لا إلينا. قل لأبيك: لقد عجبنا منك تعجباً، كيف ذهب عليك الصواب، وعدل بك ذهنك عن سواء السبيل، واتخذت اليقين ظناً، وقد لاح لك الصبح فعلام ستصبح!؟). (يتنهد): آه لو كنت أقدر يومها، على أن أجد نفقاً في الأرض فآوي إليه.. لو كنت أملك سبيلاً للرد.. لكن أبي كان قد نصحني.. أكد علي.. أن أنحني للطاغية، أن أمس بجبهتي الأرض، إذا اقتضى الأمر.. أتدري يا شهاب الدين! إن المسلم الذي اعتادت جبهته أن تمس الأرض خمس مرات في اليوم لله وحده، لا يقدر على ممارستها تجاه أحد من الناس، حتى لو كان هولاكو نفسه.. إنه على استعداد لأن يقطع جسده أمام عينيه، قبل أن يذل جبهته المؤمنة لرجل في العالم..

علم الدين سنجر: هون عليك أيها الملك، ليس فعلك ذاك خطيئة على أية حال.. إنه البر بالآباء!!

الملك الصالح: (بغضب) ليس براً هذا الذي دفعني إليه.. إنما هو نقيض البر، إذا أردت الحق.. فلما عدت إلى الموصل؛ لكي أنقل إليه ما قاله هولاكو، لمحته

جيداً وهو يرتجف هلعاً . . وقد تعمدت أن أستفزه بالتأكيد على نبرة الإذلال التي صدرت عن الطاغية . . لكن ذلك ما زاده إلا ذلة وخنوعاً . . غفر الله لك يا أبي، فما كان لك وأنت قد جاوزت السبعين من العمر، أن تخشى شيئاً في العالم . . أن تذل لأحد في الأرض . . علام؟ ولم؟ وأنت ذاهب بعد أيام وأسابيع لمقابلة الله!

شهاب الدين: لعله الحرص على الذرية، والعباد . .

الملك الصالح: (غير ملتفت لكلامه) لم يجبني بكلمة . . وهرع إلى خزائنه الخاصة، فأخرج جميع ما فيها من الأموال واللآلىء والجواهر والثياب . . لم يكتف بهذا، بل قام بمصادرة ذوي الثروة من رعاياه، وأخذ، حتى حلي حظاياه، وانتزع الحلق من أولاده الصغار . . ثم سار بنفسه ليؤكد طاعته.

علم الدين: إلى بغداد؟

الملك الصالح: لا . . كان هولاكو قد عاد إلى همذان، فلحقه أبي إلى هناك . .

علم الدين: وكيف تلقاه الطاغية؟

الملك الصالح: يقولون: إنه أحسن استقباله، واحترمه لكبر سنه، ورق له، وجبر قلبه بالمواعيد الجميلة . .

بل إنني سمعت ما زادني إحساساً بالعار، رغم أن أبي اعتبره تقييماً، واحتراماً..

علم الدين: كيف؟

الملك الصالح: أخذ الطاغية يداعب الشيخ.. يتسلى به، حتى أصعده إليه على التخت، وأذن له أن يضع بيده المرتجفة حلقتين في أذنيه، جلبهما معه من الموصل، وفيهما درّتان يتيمتان (**يصرخ**) لقد كان يتسلى به!

علم الدين: هون عليك أيها الملك، فإن توغله في العمر، قد يشفع له سلوكه هذا..

الملك الصالح: (**دون أن يلتفت مستمراً**) بقي هناك، يخدم هولاكو، ويتملقه عدة أيام، ثم ما لبث أن قفل عائداً، وبصحبته مندوب عن هولاكو؛ ليشاركه الحكم.. أو ليراقبه.. لكما أن تسميا ذلك كما تشاءان.. إنكما تذكران جيداً ملامح وجهه، لحظة دخوله الموصل.. بل لعلكما نسيتما.. أما أنا، فلن أنساها ما حييت، لأنه أبي.. صراع مرير قاس بين الفرح والغبطة، وبين الذعر والغم والانبهار.. كأن الضوء والظل كانا يتقاتلان هناك، على ساحة وجهه، كل يريد أن يستأثر بها!

شهاب الدين: لقد توفي الرجل على أية حال في السنة نفسها بعد أسابيع من عودته.. رحمه الله..

علم الدين: ولكن بعد أن زرع في المدينة هذا الضرس الخبيث..

شهاب الدين: من؟

علم الدين: من يكون غير المندوب؛ الذي أرسله هولاكو؟

الملك الصالح: **(يمد شفتيه)** لا.. ليس هذا الرجل شيئاً.. ليس سوى عين لهولاكو على ما يجري هنا.. وما كان يجري هنا أيام أبي، كان أكثر مما يريده هولاكو، فلم يكن ثمة أهمية لمندوبه هذا.. أما الآن، فقد عرفت كيف أجعله، مجرد رقم على الشمال.. رقم، لا قيمة له على الإطلاق.

علم الدين: أعتقد أن الأوان قد آن لاستئصاله..

شهاب الدين: لست معك في هذا.. إنه ورقة جيدة، قد تنفعنا فيما نحن مقبلون عليه..

الملك الصالح: على أية حال، فإنني سأخضعه للرقابة الشديدة، ولسوف أتابع ردود أفعاله.. قد يخدمنا الرجل فعلاً.. **(يرفع أكمام ردائه ويسترخي في جلسته قليلا)** دعونا من هذا كله، وقولوا لي: ماذا ترون؟.

علم الدين: ما تراه ياحضرة الملك.. إنني أعرف جندي جيداً.. بل أعرف أهل المدينة.. لقد خبرتهم بنفسي، وقرأت عنهم، إنهم لا ينقادون بسهولة.. كلمة الرفض معلقة على شفاههم، وهم إنما يستمدون هذا كله من قدرتهم على المجابهة، إن نفسهم في المقاومة، طويل أيها الملك..

الملك الصالح: وأنت يا شهاب الدين؟

شهاب الدين: لا زلت عند رأيي، فلا طاقة لنا بالغزاة، والأولى أن نتجنب الاصطدام بهم، لأن ذلك ليس في مصلحتنا على الإطلاق.

الملك الصالح: نهادنهم يعني؟!

شهاب الدين: لا أقول ذلك.. وإنما نحتال عليهم.. نسعى لأن نكسب الوقت، فلعل الله يحدث بعد ذلك أمراً!

الملك الصالح: لا تقل هذا يا شهاب الدين.. فليس بمقدور أحد أن يحتال على رجل كصندغون.. بالعكس، إنهم هم أصحاب الحيل.. دعك من هذا ولا تحاول أن تسمي الأشياء بغير مسمياتها الحقيقية.. ليس احتيالاً هذا الذي تريده، ولكنه التذلل والانحناء..

شهاب الدين: اسمح لي أيها الملك، بأن أقدم تحفظي ثانيةً، وليكن صدرك واسعاً، كما عودتنا دائماً..

الملك الصالح: قل يا شهاب الدين.. قل (**يضحك**)، فلست من هواة فصل الرؤوس عن الأجساد بإشارة ماكرة، أو ضربة إصبع.. إن خصومنا هم الذين يمارسون ذلك، ولن نكون مثلهم..

شهاب الدين: أخشى، مرة أخرى، أن يكون دافعك في اختيار القرار، الألم الذي سببه تصرف أبيك رحمه الله!

الملك الصالح: اطمئن يا شهاب الدين.. اطمئن.. فلن أقفز في الفضاء بحجة أنني غاضب، ولن أدير ظهري للخطر القريب مجتراً آلامي وأحزاني.. سأحسب لكل خطوة حسابها، فأنا مسؤول عن رعيتي، ولن أفرط بها استجابة لحزن أو غضب..

شهاب الدين: أطال الله عمرك أيها الملك.. إن كبار رجال الديوان يعرفونك جيداً، رجل، يعرف كيف يزن الأمور في ساعات الحلكة، حيث لا يكاد أحد يتبين بصيصاً من ضوء..

الملك الصالح: (**مبتسما**) أرجو ألا يدفعك إصراري إلى التنازل عن موقفك.. (**يربت على كتفه**) قد يكون

التراجع عن موقف ما؛ إزاء إصرار على موقف مضاد فضيلة تحسب لصاحبها.. لكنني أخشى من شيء آخر يا شهاب الدين!

شهاب الدين: قله أيها الملك؛ وستجدني صريحاً معك..

الملك الصالح: النفاق الذي تعرف جيداً كم أحتقره..

شهاب الدين: حاشا لله.. إنك في الوقت نفسه تعرفني جيداً..

الملك الصالح: **(يربت على كتفه مرة أخرى)** هذا ظني فيك، **(يلتفت إلى علم الدين)** أعتقد أن الأمر أصبح واضحاً تماماً.. لقد اخترت المقاومة، وهذا قراري الأخير. **(ينهض)**

(ستار)

المشهد الثاني

(ظهر اليوم نفسه.. الملك الصالح ممتطياً فرسه عند باب سنجار، غربي الموصل، يحيط به علم الدين سنجر، وشهاب الدين أحمد، وعدد من الأمراء والجند..)

الصالح: (لعلم الدين) لا داعي لأن أوصيك!

علم الدين: اطمئن أيها الملك، فسأكون عند حسن ظنك، بإذن الله..

الصالح: (لشهاب الدين) أرجو أن يكون قد تأكد لديك الآن، أنني أجمع وأطرح مثلك تماماً، (يضحك) وأن قراري، بني على حسابات، أرجو أن تكون صائبة..

علم الدين: بكل تأكيد.

الصالح: لا ليس هكذا.. إنما علينا أن نعد العدة، ونترك الباقي على الله!

شهاب الدين: وهل تضمن وقوف مصر إلى جانبنا أيها الملك؟

الصالح: هذه مسألة أشعر أنني مطمئن إليها أشد الاطمئنان.. ولكن، ما يقلقني هو الزمن..

علم الدين: الزمن؟

الصالح: نعم.. إنه حيناً يقف معك، وحيناً مع خصمك.. إنه سيف ذو حدين.. بالنسبة لنا، فإن المسألة لممّا تبعث على القلق..

شهاب الدين: (مبتسماً) أرجو أن تكون هذه المسألة قد حسبت هي الأخرى!

الصالح: تركت الإيوان ضحى اليوم، وأنا أفكر في الأمر.. لكنني سأبذل جهدي.. سأنطلق والرجال الذين اخترتهم بأقصى ما أستطيع من سرعة، من أجل كسب الوقت، والوصول إلى مصر.. سنمضي على خيولنا ليل نهار، وسنختار الطرق؛ التي تقربنا من الهدف، رغم ما قد تتضمنه من مصاعب وأخطار.. أتدري يا علم الدين؟.. إن الحرب، بشكل من الأشكال، صراع مع الزمن والمكان.. وها أنا ذا أحمل على كتفي عبء هذا الصراع المرير، مخلفاً ورائي مدينتي الحبيبة، مطمئناً إلى أنها ستفي بالعهد.. وستصبر على حصار المغول.. وستنتظرني.. إنني متأكد من ذلك.. لأنني أعرفها جيداً.. ما من شيء تحبّه يا علم الدين إلى حد العشق، إلا كان لك أن تطمئن إلى أنه بدوره يحبك ويعشقك!!

علم الدين: كن مطمئنا، فإنني أعرفهم جيداً، وسترجع بإذن الله؛ لكي تراهم ينتظرونك..

الصالح: (مربتاً على كتف شهاب الدين) والطبول المغولية؟

شهاب الدين: (كمن ينتبه من تفكير مستغرق) أية طبول أيها الملك؟

الصالح: ركز سمعك جيداً، وسوف تحس بضرباتها المخيفة!!

علم الدين: ليس ثمة رعب لا يمكن التغلب عليه!

الصالح: كيف؟ هل ستصم أذنيك؟

شهاب الدين: وهل بمقدور مدينة بكاملها أن تصم آذانها؟

الصالح: كلا!

علم الدين: إذاً، فهنالك أسلوب آخر.. إنه الإصرار على المقاومة.. الإيمان الكامل بأن رعباً كهذا، يجب أن يهزم.. أو على الأقل، يقاوم.. وحينذاك، سوف يفقد الإيقاع الرهيب تأثيره.. سيغدو مجرد إثارة وإرباكاً.. لعبة مكشوفة..

الصالح: بارك الله فيك..

علم الدين: وثمة ما هو أكثر فاعلية من هذا..

الصالح: (مبتسماً) أهنالك شيء آخر بعد؟

علم الدين: بكل تأكيد.. إنه الأمل.. إنهم سينتظرونك، ومن ورائك، ما ستمدك به مصر والمماليك..

الصالح: (وهو يخطف نظرة إلى شهاب الدين) أتدري.. إنني أحس اللحظة إنني سعيد.. إذا كان أصحابي ينظرون إلى المسألة هكذا، فمعنى ذلك أن يداً واحدة.. يداً قديرة.. يداً تملك العقل والقلب والقوة.. سترتفع من الموصل.. اليوم أو غداً.. لكي تطوف على أسوارها، واثقة مطمئنة، تحميها، وتدفع عنها.. ثم تقف بمواجهة المغول.. وتصفعهم!

شهاب الدين: (وهو ينظر إلى الأفق) لعلهم الآن على بعد فراسخ!

الصالح: (مستمراً) ولم لا؟ قبل أقل من سنتين، كادوا أن يكتسحوا مصر نفسها، ولكنها، في اللحظة الأخيرة، اختارت أن تجابه الغزاة بيد واحدة، فتلوي ذراعهم الصلبة، القاسية، الباردة كالحديد، وتمرغ أنوفهم في التراب.. لقد صفع المغول في عين جالوت، وليس مستحيلاً، أن يتلقوا صفعة أخرى في الموصل!! ليس مستحيلاً..

شهاب الدين: (بعفوية) الموصل؟

الصالح: (بدهشة) ولم لا؟!!

شهاب الدين: لا.. لا أقصد.. ولكن...

الصالح: (مقاطعاً) ليست أحجام الأشياء هي التي تصنع التاريخ دائماً... ولكنه الإيمان الواثق بنفسه.. الإصرار المؤمن إذا شئت..

شهاب الدين: رغم كل ما قلته أيها الملك.. رغم أنني أحس جازماً بأن جزءاً ما مني هو معك.. يؤيدك ويباركك، فإنه، سيظل في النفس شيء.. هل تسمح أن أكون معك صريحاً مرة أخرى؟

علم الدين: (بقلق) ماذا عندك هذه المرة؟!!

الصالح: إنني أحب صراحتك يا شهاب الدين؛ لأنني أعرف مدى حرصك.. ولكن الحرص إذا تجاوز حدوده المعقولة.. إذا اعتمد منطق الجمع والطرح بحساب الكسور والأعشار، أصبح سلاحاً نوجهه ضد أنفسنا.. وأنا أرفض في لحظات كهذه أن نمارس هذه اللعبة..

شهاب الدين: ولكنها تحيك في نفسي..

الصالح: قلها فلا بأس عليك..

شهاب الدين: إنه ما من مدينة من مدن الإسلام ـ على مدى بلاد المشرق كلها ـ قدرت على أن تقف بمواجهة المغول.. لقد طووها جميعاً.. فما معنى أن تشذ الموصل، وتصنع معجزة كالسراب، هي ليست في متناولنا على أية حال؟

الصالح: (وهو ينظر عبر الأفق) قد لا تصدقني إذا قلت لك: بأن القاعدة كانت ـ في كثير من الأحيان ـ صنيعة الاستثناء.. أن تكسر المقولات الراهنة.. أن تتجاوز المعادلات العادية صوب معادلات من نوع جديد.. وتصر على ذلك.. تؤمن به حتى النخاع.. فإن ذلك سيمنحك الفرصة لأن تفرض معادلاتك الجديدة هذه على التاريخ..

شهاب الدين: أتمنى أن أصدقك أيها الملك..

الصالح: سواء صدقتني أم لا، فإن الأمر سواء.. إن المسألة تتجاوز حدود القناعة العقلية صوب يقين هو أعمق بكثير، وأبعد بكثير.. وما دمت لا تملك هذا اليقين، فإن الأمر سيان..

شهاب الدين: (متراجعاً) معذرة أيها الملك..

الصالح: مم؟ إنني لم أكره الصراحة يوماً..

شهاب الدين: لقد أخذت من وقتك أكثر مما يجب، وأنت مزمع الرحيل.

الصالح: (مبتسماً) إذا قدر لي أن أرجع.. فسوف نواصل الحديث!

شهاب الدين: ولكنني أخشى..

الصالح: (**يضع يده على فمه**) ليس الآن.. ليس الآن.. «يشد لجام فرسه ملوحاً بالوداع، وما يلبث رجاله أن ينطلقوا وراءه».

(تعتيم)

الظاهر بيبرس: (**متربعاً على عرشه في مقر سلطنته بالقاهرة**) ها قد جئت إذاً أيها الملك الصالح؟

الصالح: (**وهو يرمي نفسه بإعياء إلى جوار الظاهر**) نعم أيها السلطان.

الظاهر: (مبتسماً) حللت أهلاً، ووطئت سهلاً..

الصالح: أما أن أحلل أهلاً، فنعم بالله.. وأما أن أطأ سهلاً فلا والله، لن يقر لي قرار، حتى آخذ وعداً منك بالمعونة.. إنهم يغزوننا أيها السلطان.. فإن لم أتصد لهم، أنا وغيري من الملوك والأمراء.. فلا يبعد أن يطرقوا أبواب القاهرة مرة أخرى!

الظاهر: (مستغرقاً في التفكير) ولكن، قل لي، كيف قدرت على اجتياز المسافات الشاسعة بيننا وبينكم في أيام معدودات؟! إن هذا ـ والله ـ لممّا يدعو إلى الدهشة..

الصالح: لقد قطعها خالد (رضي الله عنه) قبل مئات السنين، وسيقطعها بعدي آخرون.. إن تاريخ الإسلام لن يعدم الذين يتجاوزون حيثيات الزمن والمكان؛ بحثاً عن مصائر دينهم.. إن ديننا يمتحن اليوم برجاله، أيها السلطان.. فإن لم نصمد.. إن لم نستجب للتحدي، فماذا سيقول عنا التاريخ؟ ماذا سيفعل بنا؟

الظاهر: ولكنك لم تقل لي كيف قطعت الطريق الطويل.. إنني أهنئك على أية حال..

الصالح: عندما تقرر أن تصل شاطئ بحر الظلمات، من مكانك هذا، في يوم واحد، فإنك فاعل..

الظاهر: (يمسد على لحيته دون أن يجيب)..

الصالح: (مستمراً) فيما وراء عقلنا الظاهر وإحساسنا المنظور، عقل آخر، وإحساس ثان، يدلاننا على الطريق.. يعلماننا كيف نختزله؛ وصولاً إلى الأهداف..

الظاهر: كيف؟

الصالح: ومع ذلك فهو أوضح من العقل، وأشد ظهوراً من الحس المشهود.. إنه الإيمان أيها السلطان..

الظاهر: (محاولاً أن يداري انفعاله) لا أريد أن أتحدث عن نفسي، فإن هذا يغضب الله ورسوله.. ولكنّ هناك أموراً، يجب أن تقال.. لقد عرفت هذا الذي تحكي عنه قبل سنتين!

الصالح: رسالة هولاكو.. أليس كذلك؟

الظاهر: وبعدها، كان الإيمان هو العقل، واليد، والسمع، والبصر.. أقسم لك أيها الملك الصالح، إنه بدونه ما كان بمقدورنا أن نفعل شيئاً.. كنا سنبتلع الهزيمة، ونحن لا نزال نجمع ونطرح، ولكننا، ما لبثنا أن وجدنا أنفسنا محمولين إلى سيناء وفلسطين، هناك حيث تحققت المعجزة وهزم المغول.. كان ثمة ما يمنحنا القدرة على الفعل من وراء المنظور والملموس..

الصالح: (مع نفسه) قلها له.. فإنه لا يؤمن بها!

الظاهر: ماذا؟

الصالح: أبداً.. لا شيء..

الظاهر: والآن، فإنك تتعرض للمحنة وتطلب المساعدة..

الصالح: نفعل ما في وسعنا، ونترك الباقي على الله..

الظاهر: سأفكر في الأمر، ولن يطول جوابي.. إن لك أن ترتاح ورجالك يوماً أو يومين..

الصالح: **(بنبرة الأمل)** أرجو أن يجيء الجواب في حدود هذا اليوم أو اليومين!

الظاهر: إن شاء الله **(يهم بالنهوض ولكنه ما يلبث أن يجلس ثانية)** ولكنك لم تقل لي هل وصلوا أم لا؟

الصالح: **(يجلس هو الآخر)** كانوا على بعد خطوات.. والآن، فإنهم يحاصرون المدينة بكل تأكيد..

الظاهر: وهل معنى هذا أنك ستنتظر حتى نعد العدة لكي نقدر على مجابهتهم؟

الصالح: **(بثقة)** كلا.. لن أترك مدينتي تدافع وحدها بانتظار المعونة؛ التي قد يستغرق وصولها أسابيع وربما أشهراً.. سأرجع؛ لكي أدبر الأمر هناك.. وعندما تصل، سأعرف كيف أجابه الغزاة.

الظاهر: (وهو يحدق فيه) ولكن..

الصالح: أعرف ما الذي يدور في خلدك.. كيف سأتمكن من الدخول.. أليس كذلك؟

الظاهر: هذا هو السؤال..

الصالح: من هذه الناحية، اطمئن.. فإنني قد تدبرت الأمر مع رجالي..

الظاهر: (وهو يهم بالنهوض) يعني، أنك ستنتظر هناك؟

الصالح: (ينهض هو الآخر مبتسماً) بإذن الله.. ولكن، لا تنس أيها السلطان أن اليد الواحدة لا تستطيع التصفيق.. إنني بانتظار اليد الأخرى؛ لكي أعرف كيف أكسر رقابهم!

(ستار)

المشهد الثالث

(عصر اليوم نفسه، دار المملكة في الموصل، علم الدين سنجر يتصدر المجلس، ومن حوله كبار الأمراء والقادة..).

علم الدين: لقد تراجع إلى القلعة إذاً؛ لكي يعتصم هناك؟

احد القادة: حاول أن يقطع الطريق عليك، ويمنعك من دخول المدينة؛ لكي تظل بلا قائد، وحينذاك يسهل عليه تسليمها لرفاقه القادمين لقمة سائغة..

علم الدين: (يتحسر) سامحك الله أيها الملك بدر الدين.. لقد زرعته بين ظهرانينا، وكان بمقدورك أن ترفض.. لقد كان ابنك ـ الملك الصالح ـ على حق.. إن هذا المندوب المغولي، شوكة مغروزة في جنوبنا.. سكين، تتهددنا من الخلف، ونحن نجابه الغزاة..

القائد: اتفقت كلمتنا على قتله، رغم أن ذلك سيستفز المغول، ونحن لا نريد أن نستفزهم قبل أن يرجع الملك الصالح.. طاردناه ولكنه تخفى

حتى أوى إلى القلعة، واعتصم هناك.. إنه ليس وحده على أية حال!

علم الدين: (دهشاً) ليس وحده!!

القائد: لقد تآمر معه عدد من نصارى المدينة..

علم الدين: هكذا إذاً؟

القائد: حرضوه على منعك من دخول الموصل بعد توديعك للملك، ولما فشلت المحاولة، حموا ظهره، وهربوه عبر دورهم وكنائسهم، حتى انتهى به المطاف إلى القلعة الحصينة، ولا يزال بعضهم معتصماً معه هناك..

علم الدين: (بغضب) لقد فعلوها إذاً!! كنت أخشى ذلك!!.. لقد كان الملك الصالح أول من نبهني إليه.. قال لي: إنهم سيتعاطفون معهم.. سألته: وهل ثمة ما يدفعهم إلى ذلك، وقد عاشوا معنا في هذه المدينة مئات السنين؟ قال: إنهم يعرفون جيداً، أن هولاكو يعطف عليهم؛ بتحريض من زوجته النصرانية، ثم ها هو ذا يقذف الموصل بقائده النصراني صندغون.. إنه يعرف كيف يمزق الصفوف.. خبيث، يجيد استعمال كل سلاح يبلغ به مآربه.. وها هو ذا

يلعب لعبته لكي يعثر في المدينة على من يعبد له الطريق.. وستنطلي اللعبة عليهم بكل تأكيد..

قائد ثان: إننا حذرون أيها القائد، وقد فرضنا على القلعة رقابه محكمة..

علم الدين: لا أعني هذا على وجه التحديد.. إنما هناك مئات منهم منتشرون في الموصل، وأخشى أن يمدوا الجسور للمغول.. أخشى أن يفتحوا ثغرة هنا وممراً هناك، فيصعب علينا رتق الفتق، ومجابهة السيل.. إنكم تعلمون جيداً، أنه من المستحيل ـ أحياناً ـ أن يقاتل المرء على جبهتين..

القائد الثاني: وهذه أيضاً قد حسبنا حسابها.. إنهم مراقبون جيداً..

علم الدين: ولكن حذار من استفزازهم.. إن مهمتنا تحتم علينا أن تنصب جهودنا على تجميد الوضع قدر الإمكان.. تعليقه بصيغته الراهنة ريثما يعود الملك؛ لكي نعرف ما الذي فعله بصدد النجدة.. وحينذاك، يمكن أن نخطو خطوة أخرى..

القائد الأول: على أية حال، لقد اقتصصنا من بعض رؤوسهم، بعد أن تأكد لدينا اشتراكهم في المؤامرة.. كان لابد من العقاب؛ لكي لا

يتمادوا ونحن في حال لا نحسد عليها.. ثم إننا خفنا أن يسبقنا الأهالي إلى الانتقام، فنفقد السيطرة.. لقد كانوا يتميزون غيظاً وغضباً.

علم الدين: (وهو يدعك لحيته بعصبية) العين بالعين، والسن بالسن، والجروح قصاص..

القائد الأول: ليسوا كلهم إذا أردنا الحق.. إن بعضهم معنا قلباً ويداً..

علم الدين: الحمد لله!

القائد الأول: ذلك مما يخفف بعض العناء..

علم الدين: بكل تأكيد..

القائد الثاني: لقد جاء بعضهم إلى دار المملكة قبل ساعتين؛ لكي يعلنوا عن تضامنهم.. كانوا يحسون بالعار مما فعله أصحابهم.. وكنا نرى ذلك بوضوح في نظراتهم..

علم الدين: لو أن محاولته نفذت بعد وصول المغول، لساءت العاقبة، ولكن الله سلم.. ومن يدري فلعل الأمور تجري لصالحنا.. ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦].

القائد الأول: رغم اعتصامه وأنصاره بالقلعة، فإنه معزول هناك، وقد يتسلل منها عائداً إلى أصحابه،

لحظة يتبين له أن الموصل ليست لقمة سائغة في فم المغول، كما يتوهم.. إنني متأكد من ذلك.. وعلى أية حال، فإن هذه المؤامرة الملعونة، قد فرزت خصومنا.. ونرجو أن نجابه الغزاة القادمين صفاً واحداً..

علم الدين: (محاولاً أن ينتزع ابتسامة) إن شاء الله!

(تعتيم)

مساء اليوم نفسه.. تبدو قلعة الموصل الرئيسية (باشطابيا)، القائمة على مرتفع من الأرض، والمطلة على نهر دجلة في الركن الشمالي الشرقي للمدينة على بعد مئات الأمتار من دار المملكة.. المندوب المغولي يقف وراء أحد الأبراج، يطل على النهر ومن حوله عدد من الرجال..)

المندوب: (مشيراً إلى تحصينات القلعة المرتفعة بقلق) إننا بمأمن منهم، أليس كذلك؟

عبد الأحد البناء: إنها مهنتي أيها القائد، وأنا أعرف هذه التحصينات جيداً.. لقد قطعت عمري في ترميمها وصيانتها..

المندوب: (بنفاد صبر) يعني؟

عبد الأحد: يعني أن مقاتلي الموصل، وضعفهم معهم، ليسوا بقادرين على اقتحامها بأقل من شهرين!

جورجيوس بن حنا: (وهو يفرك يديه بارتياح) وخلال ذلك.. بل قبله بكثير.. يكون أصحابكم قد اكتسحوا المدينة.. ليس ثمة مدعاة للقلق على الإطلاق..

المندوب: أعرف ذلك جيداً، فالقائد صندغون سيصل هذا المساء، وسيبدأ الحصار.. ما من مدينة وقفت في وجهه.. إنه يد هولاكو الضاربة؛ التي عرف كيف يمحو بها المدن والقلاع من على وجه الأرض، كما يمحو المرء بيوتاً مشيدة من الرمال..

عبد الأحد: ثم إن الملك غائب عن المدينة، وقد لا يرجع إليها أبداً..

المندوب: افترض أنه لا يزال موجوداً فيها، فهل يقدم ذلك أو يؤخر شيئاً؟

جورجيوس: إنه صراع غير متكافئ على الإطلاق.. وكان عليهم أن يدركوا هذا جيداً.. شد ما أرثي لهم.. إنهم كمن يلقي بنفسه طائعاً إلى النار..

عبد الأحد: ثم إن تهورهم بقتل عدد من أصحابنا، سيضاعف من نقمة صندغون.. وسيكون العقاب رهيباً..

جورجيوس: (وهو يفرك يديه) أتراها ستسمع بذلك!

المندوب: من؟

جورجيوس: زوجة هولاكو!

المندوب: (ضاحكاً) لقد ذهبت بعيداً يا رجل.

جورجيوس: أبداً، فإن حزنها سيجعلها تطلب من هولاكو أن يضاعف العقاب.. هذه ليست أول مرة.. إنه يحبها كثيراً..

المندوب: (كمن يتذكر) ثمة احتمال واحد يسبب لي القلق..

عبد الأحد وجورجيوس: (معاً) ماذا؟!

المندوب: **(وهو يلتفت إليهما مائلاً بظهره على جدار البرج، ومشيراً إلى جهة الغرب)** إذا رجع الملك الصالح بنجدة كبيرة، فقد يختل ميزان القوى، فتفوت الفرصة على المغول.. إن المماليك ممن يخشى بأسهم، وقد خاب فألنا معهم في عين جالوت.. وأخشى أن يفعلوها مرة أخرى..

جورجيوس: (بقلق) وهل أنت متأكد من أن الملك قد ذهب يطلب نجدتهم؟

المندوب: هذا واضح..

عبد الأحد: ولكنه يحتاج لأكثر من شهر؛ كي يصل إلى هناك.. أما صندغون، فها هي راياته تخفق قادمة من الجنوب.. ساعات قلائل ليس إلا..

جورجيوس: ترى، كم ستقدر مدينة ضعيفة كالموصل على المقاومة؟ يوماً؟ يومين؟ فلتكن عشرة أيام.. وصاحبنا، لم يكن قد اجتاز الفرات بعد **(يضحك)**..

المندوب: **(وقد عاد إليه شيء من اطمئنانه)** أنا معكما في هذا.. إن ما تقولانه مؤكد.. ولكن الإنسان لا يدري ـ أحياناً ـ لم يخاف المجهول.. رغم أن كل ما يراه ويلمسه يمنحه الاطمئنان..

عبد الأحد: يحدث أحياناً أيها المندوب، وأن يقع ما لا تتوقعه، فيقلب حساباتك رأساً على عقب.. ولكن هذا في حالتنا مستحيل.مستحيل...

جورجيوس: لو أن مدينة أو قلعة واحدة استعصت عليهم، لقلنا: ربما... ثم إن صندغون ليس بالرجل الهين.. إنه منحوت من الغرانيت نفسه الذي قد منه سيده هولاكو..

عبد الأحد: كنت أقول في نفسي: لو أن محاولتنا بمنع علم الدين سنجر من دخول المدينة ظهر هذا اليوم آلت إلى النجاح، لكان الحال غير الحال.. ومن يدري، فلربما جاء صندغون هذا المساء؛ لكي يتسلم مفاتيحها.. ولكن **(يتنهد)**..

جورجيوس: لا داعي للندم.. لقد فعلنا؛ الذي نقدر عليه.. وسيعرف صندغون أننا لم ندخر وسعاً في تسهيل مهمته..

المندوب: (بلهجة التأنيب) لقد أوهمتماني بأن معكما حشداً كبيراً من الأعوان، وأن المحاولة مضمونة تماماً.. ثم سرعان ما تبين لي أننا كنا مراقبين جيداً، وأنكما في قلّة من الرجال.. ولو أنني أطعتكما حتى النهاية، لكانت رؤوسنا قد اجتزت منذ ساعات!

عبد الأحد: ولكننا عرفنا كيف نؤمن لك الحماية؛ لكي تصل إلى هنا..

جورجيوس: لحسن الحظ، فإن أزقتنا ودورنا وكنائسنا، تتمركز في الساحة الشمالية الفاصلة بين باب سنجار والقلعة.. لقد كان طريق الانسحاب معبداً..

المندوب: لا أنكر ذلك، ولكن ثمة خطأ في التقدير كان يمكن ألا يحدث..

عبد الأحد وجورجيوس: (معاً) في هذه النقطة، نحن معك..

المندوب: (وهو يلتفت صوب النهر مشيراً إليه) لولا هذا، لكان بمقدور صندغون اكتساح المدينة في ساعات معدودات..

عبد الأحد: **(مبتسماً)** لكنه يؤمن لنا الحماية نحن الآخرين.. فلا بأس..

جورجيوس: مهما يكن من أمر، فإن العبرة في النتائج..

المندوب: **(دون أن يلتفت إليهما، مصيخاً سمعه جنوباً)** أتسمعان؟!

عبد الأحد وجورجيوس: ماذا؟

المندوب: **(وهو يمد عنقه أكثر)** أنصتا جيداً.. الطبول المغولية!!

عبد الأحد وجورجيوس: (بفرح) لقد وصلوا إذاً.. هذا ما كنا نتوقعه!

المندوب: وسيعرف علم الدين سنجر غداً صباحاً بأس المغول.

عبد الأحد: ولسوف يدفع الثمن غالياً، عند الصبح..

جورجيوس: أليس الصبح بقريب؟!

(ستار)

المشهد الرابع

(الرابع من جمادى الآخرة، خيمة ميدان كبيرة في الباحة المجاورة لجامع نور الدين محمود، وسط الموصل، حيث مقر الملك الصالح وقادته؛ لقيادة مهمات الدفاع عن المدينة.

يقف الصالح عند باب الخيمة، وإلى جواره علم الدين سنجر وحشد من القادة والأمراء..

في المدى القريب، تبدو حركة غير اعتيادية، فثمة مقاتلون يروحون ويجيئون، وهم ينقلون المؤن والذخيرة، وثمة حشود من الأهالي المتطوعين، يحملون أسلحتهم ويتجولون قريباً من الأسوار؛ لمراقبة تحركات المغول.. نداءات وأصوات مختلطة تقطعها بين الحين والآخر ضربات المنجنيقات المغولية).

الصالح: (مشيراً صوب الغرب والجنوب) إذاً، فقد أصبح عددها كبيراً؟

علم الدين: بكل تأكيد، لقد أحصينا منها ـ حتى الآن ـ ما يزيد على العشرين.

الصالح: قاتلهم الله.. إنهم يعرفون كيف يضربون بها، وكيف يصيبون الأهداف؟

علم الدين: إنهم معروفون بمنجنيقاتهم أيها الملك، فهي أداتهم الأساسية في اكتساح التحصينات والقلاع، ولكنها، لن تنال من عزيمتنا، بإذن الله..

الصالح: (يربت على كتفه) بارك الله فيك يا علم الدين، كنت أقول دائماً ـ وأنا ذاهب إلى مصر ـ إنني قد تركت في الموصل رجلاً لا يهمني بعدها إن عدت أو لم أعد، على الإطلاق!

علم الدين: (وهو يشير إلى القادة المحيطين بهما) ليس علم الدين وحده على أية حال..إنه بدوره يستمد قدراته على المقاومة من هؤلاء القادة المؤمنين.. لقد خبرتهم جيداً أيام المحنة مع المندوب المغولي وأنصاره، وها أنا ذا أختبرهم مرة أخرى.. أربعة أشهر بكاملها!

الصالح: (يجيل عينيه في وجوههم مبتسماً) أعرف يا علم الدين.. أعرف..

علم الدين: (مستمراً) إذا أردت الحق، فإن ثمة ما يرفع من معنوياتنا، ويمكننا من الصمود.. إنها جماهير المدينة.. لقد تدفقت على مقر القيادة منذ لحظات الغزو.. وكنت أرى إصرارهم

واندفاعهم جيداً فأقول في نفسي؛ ها قد ربحنا نصف الجولة.. ولم يتبق سوى أن يرجع الملك بالبشرى.

الصالح: قبل أن أتخذ قراري بالمقاومة، وعبر لحظات التردد التي يتأرجح فيها المصير بين السلب والإيجاب.. يخفق كالوهج لحظات، ثم يغيب في الظلمة القاتمة لحظات أخرى.. يومها، عرضت على مخيلتي، هذه الجماهير المؤمنة، فمالت بي الكفة، وطال أمد الوهج، فاتخذت على ضوئه قراري.. إنني أعرفهم؛ لأنني خبرتهم جيداً منذ عودة أبي كسيراً من بغداد.. لقد كان حزنهم هو الذي يتكلم.. يقول بلغته الخاصة كل شيء.. يحكي عن كل شيء.. كانوا هم الذين انكسروا وليس أبي.. لقد أرادها ـ رحمه الله ـ مساومة.. بيعاً وشراءً.. أما الجماهير المؤمنة، فلن تساوم.. لن تبيع وتشتري.. يقيناً.. وقلت في نفسي: إن علي أكثر من مهمة.. أن أكفر عن خطيئة أبي.. أن أدافع عن مدينتي.. وأن أجابه حزن الجماهير بما أقدر عليه من الفرح؛ الذي يجعل الإنسان ـ حتى وهو يموت أو ينهزم ـ يموت وينهزم وهو قرير العين، مرتاحاً.. وشتان بين الهزيمتين!

علم الدين: كان شهاب الدين أحمد يأكله القلق منذ لحظات وداعك عند باب سنجار.. ولكنه ما لبث أن رأى بأم عينيه هذا التوحد العجيب بين الجماهير والقيادة.. هذا التعاشق؛ الذي يحيل المدينة - فعلاً - إلى قلعة صلبة قديرة على الصمود.. على الأقل، ريثما ترجع من هناك.. حينذاك استرد بعض روعه، وها هو الآن، يعمل بهدوء في حساباته بالديوان، رغم متاعب عمل كهذا في ظروف الحرب، والنفقات الكبيرة.

الصالح: (كمن يتذكر) وكيف حال الأموال؟

علم الدين: لا أخفي عليك أيها الملك.. إنها ليست على ما يرام، رغم ما تعرفه عن حرص شهاب الدين، وقدرته على مجابهة المعضلات.. ولكن المسألة هذه المرة تختلف.. إنها تفوق الطاقة على الحرص.. أربعة أشهر من الحصار الشرس ليست بالأمر الهين..

الصالح: (وهو يهز رأسه) أعرف هذا..

علم الدين: ولا أكتمك، كذلك إن الأقوات تعاني من نقص متزايد قد يبلغ حافة الخطر في يوم قريب.. أما أسعار المواد، فلا تسل عنها.. لقد بلغ بعضها حداً لم يحلم به إنسان!

الصالح: (بقلق) سأطلب من شهاب الدين أن يرفع إلي هذا المساء تقريراً عن هذه المسائل، ولكنني، أحب أن أعرف ـ الآن ـ شيئاً عن القدرات الدفاعية.. هل أخذت تعاني من الانكماش والتناقص هي الأخرى؟

علم الدين: (بثقة) في هذه المسألة، قد لا تجدي التقارير نفعاً، قد لا تعبر عما هو قائم فعلاً.. وما هو قائم، هو هذا؛ الذي تراه بعينيك ـ أيها الملك ـ فتقران له بحمد الله!

الصالح: (وقد عاد إليه شيء من اطمئنانه) الحمد لله..

علم الدين: إن مدينة تقاوم الأشهر الطوال، قوى تفوق طاقتها بكثير، ثم تصمد للمحنة، دون أن ينقص ذلك من عزمها شيئاً، لهي قادرة على أن تواصل المقاومة أشهراً أخرى..

الصالح: إنه الإيمان الذي يغذيه الأمل يا علم الدين.. إنهم ينتظرون وصول النجدة بين لحظة وأخرى، وهذا يدفعهم لتصعيد مقاومتهم.. وهم يقولون في نفوسهم: سوف يأتون.. فما علينا إلا أن نمسك بمصيرنا بقوة.. فعلى بعد خطوات.. على مدى لحظات خاطفة من عمر الزمن، قد تنقلب الكفة، فنخسر كل شيء، أو نكسب كل

شيء.. وهكذا، فإن الأمر ها هنا يختلف تماماً عن المال والمؤونة والقوت.. هناك تنخفض المعدلات، تتحرك باتجاه مضاد.. أما هنا.. على أية حال، فإن شمس الدين البرلي قادم عما قريب، وقد بدا تحركه يحدث قلقاً في معسكر صندغون.. والقلق في حالات كهذه مدخل إلى الرعب.. إلى شيء قريب من الرعب.. سمه انهيار المعنويات.. سمه غياب الأمل.. سمه ما شئت.. لكن التقارير؛ التي تصلني عما يجري هناك، أسفل الأسوار، في معسكرات العدو، تمنحني بالمقابل، يقيناً متزايداً بأن مقاومتنا قد أتت ثمارها، وأنه ليس ثمة لا جدوى من اتخاذ القرار الرافض، في لحظات انهيار التكافؤ بين قوتين.. لأن انهياراً كهذا، ليس سوى حالة راهنة.. حالة قد تتبدل بعد لحظات، أو ساعات، أو حتى أيام وشهور.. لا بد أن تتبدل، فالتاريخ، لا يعرف السكون.. إنه تمخض دائم، يقلب ويغير على غير توقع أحياناً.. والمهم، أن الإنسان بموقفه يمكن أن يضيف إيمانه وإرادته إلى حركة التاريخ، وحينذاك.. فليس ثمة حالة أبدية من عدم التكافؤ.. من السكون المطلق لصالح الخصوم

والأعداء.. كنت أخمن هذا جيداً وأنا أتخذ قراري.. علم الدين!

علم الدين: نعم أيها الملك..

الصالح: أعلن في المدينة، وبأعلى ما تستطيع من صوت، أن نجدة البرلي، قد قطعت ثلثي الطريق، وإنها ستصل عما قريب.. امنح الجماهير فرصة لالتقاط الأنفاس.. لأمل أكثر كثافة، يعينهم على تصعيد روحهم المعنوية، ويتجاوز بهم حافات الإعياء.. ولا تنسَ أن ترسل العيون إلى معسكر صندغون؛ لكي ينشروا فيه الخبر على أوسع نطاق.. لقد آن الأوان يا علم الدين!!

(تعتيم)

صندغون: **(عند باب خيمة الميدان الكبيرة، في الجهة الجنوبية من سور الموصل، قريباً من باب العراق، يحيط به حشد من قادته وأمرائه)..** نعم.. لقد آن الأوان للرحيل..

تكودار: ولكن أيها القائد..

صندغون: **(مقاطعاً)** أعرف ما ستقول، ولكنني أدرك الأمور أكثر منك!

تكودار: امنحني أياماً أخرى، وسترى بأم عينيك!

صندغون: ستدك الأسوار، وتفتح الطريق.. أليس كذلك؟

تكودار: بكل تأكيد، ولسوف ترى..

صندغون: (بعصبية) إذاً، لماذا لم ترني ذلك عبر أربعة أشهر مضت، وأنت تضرب المدينة ليل نهار؟!

تكودار: رغم أنني لم أجد في حياتي إصراراً كهذا؛ الذي تبديه الموصل.. تصلح في الليل ما ندكه في النهار، وتبني نهاراً ما نأتي عليه في الليل.. فإنني واثق من استسلامهم في نهاية الأمر.. (بثقة) إن منجنيقاتي لم يقف لها شيء..

صندغون: إنك تنظر دائماً بعين واحدة.. بل إنك لا تكلف نفسك عناء الالتفات، ولو قليلاً، إلى الجهة الأخرى (يشير إلى الغرب) لقد يممت وجهك صوب الموصل؛ لكي تدكها، أليس كذلك؟

تكودار: تلك هي مهمتي الأولى والأخيرة.

صندغون: ولكن إذا جاءك من هو أقدر منك على الرؤية لأطراف المسألة جميعاً، إنذار بأن ظهرك مكشوف، وأنك قد تتلقى الضربة القاضية قبل أن تأتي على فريستك، فماذا تقول؟

تكودار: (يجيل عينيه بين صندغون وقادته) لست أفهم شيئاً!

صندغون: (محاولاً انتزاع ابتسامة) هذا ما كنت أقوله قبل قليل!

تكودار: ماذا أيها القائد؟

صندغون: (يصرخ) المماليك قادمون.. إنهم على بعد خطوات منا، ولن أسمح لنفسي بأن أعيد معهم مأساة كتبغا في عين جالوت

تكودار: المماليك؟!

صندغون: أربعة أيام، أو خمسة، ويضرب شمس الدين البرلي ضربته القاضية، وأنت تتلهى بلعبة المنجنيقات..

تكودار: في هذه النقطة، معك حق أيها القائد.. ولكن..

صندغون: (بالانفعال نفسه) ستقول أيضاً: امنحني فرصة أخيرة.. ولكن حذار، فإن ما لم تفعله في أربعة أشهر، لا يمكن أن تفعله في أربعة أيام!

تكودار: لم أقل هذا.. إنما أردت.. إذا سمحت لي.. أردت أن..

صندغون: قل.. قل بسرعة..

تكودار: لماذا لا نجابه المماليك في مكاننا هذا؟ إننا نفوقهم عدداً..

صندغون: ومن قال لك ذلك؟

تكودار: (مستمراً) ثم إن رفع الحصار عن الموصل بعد هذه الأشهر الطوال ـ على أمل العودة لحصارها ثانية ـ سيمنحها فرصة لتعزيز دفاعها، ولن يكون بمقدور ألف منجنيق ـ يومها ـ أن تدفعها إلى الاستسلام..

صندغون: عدنا إلى حكاية المنجنيقات.. إن القرارات العسكرية العليا يا تكودار، لا تصنعها الآلة الحربية وحدها.. إنها مسألة أكثر تعقيداً بكثير.. واعذرني إذا قلت لك: إنك لست ملماً بها بما فيه الكفاية، فتلك ليست مهمتك..

تكودار: (متراجعاً) آسف إذا كنت قد أزعجتك أيها القائد باقتراحاتي الخاطئة..

صندغون: (صارخاً) أيها القادة.. أيها الأمراء.. أذنوا في المقاتلين بأن يتجهزوا للرحيل فجر غد.. إن الضرورات الحربية الراهنة، تحتم علينا فك الحصار.. على أن نرجع إليهم مرة أخرى..

(يندفع إلى باب الخيمة فجأة، الأمير المملوكي السابق الزين الحافظي وهو يصرخ)

الحافظي: لماذا؟ **(يتقدم إليه عدد من الحراس، فيوقفونه على بعد خطوات من صندغون)**

صندغون: **(دهشاً)** أنت؟!!

الحافظي: **(وهو يلهث)** نعم أيها القائد.

صندغون: دعوه فإنني أعرفه جيداً.. إنه من أتباعنا المخلصين.. ماذا وراءك يا زين الدين؟

الحافظي: البشرى؛ التي تريدها أيها القائد!!

صندغون: **(دهشاً)** البشرى؟!!

الحافظي: على بعد خطوات منك، وأنت تريد أن تفك الحصار وترحل!

صندغون: **(بنفاد صبر)** تكلم يا رجل، أوضح.. قل كل ما عندك، فإني لا أكاد أفقه شيئاً..

الحافظي: **(بابتسامة واثقة)** القسم الأكبر من النجدة المملوكية انحرف عن هدفه، وما لبث قائدها سنقر الرومي ـ بعد مغادرته دمشق بمراحل ـ أن يمم وجهه غرباً صوب أنطاكية.. لقد دفعته ضرورات القتال ضد أصدقائكم الصليبيين هناك، إلى أن يتخلى عن هدفه مؤقتاً..

صندغون: والبرلي؟!

الحافظي: **(بالابتسامة نفسها)** كان ينتظر صاحبه على أحر من الجمر، إذ أن قواته في حلب، لا تقدر على أداء المهمة وحدها.. إن مجابهتكم أيها القائد، ليست أمراً يسيراً.. إنه يحسب لها ألف حساب..

صندغون: ولكنه قادم إلينا رغم كل شيء.

الحافظي: **(ماداً شفتيه بازدراء)** محاولة جنونية ليس إلا!

صندغون: ماذا تقصد؟

الحافظي: إنه ينتحر!

صندغون: **(بنفاد صبر)** ماذا؟!!

الحافظي: يئس من انتظار صاحبه، وأدرك أن مهمته مع صليبيي أنطاكية ستطول، فقرر أن يتحرك وحده على رأس عدة مئات من أصحابه، هي كل ما يملك **(يمد شفتيه)** يريد أن يصير بطلاً كصاحبه هذا **(يشير إلى سور الموصل)**..

صندغون: **(وهو يحاول أن يكتم فرحته)** أأنت متأكد مما تقول؟

الحافظي: **(يتقدم خطوة أخرى وينحني أمام صندغون)** هذه

رقبتي بين يديك، وافعل بها ما تشاء إن ثبت لديك عكس ما أقول.

صندغون: **(يرفع رأسه بيده ويربت على كتفه)** لا داعي لذلك، فنحن نعرفك جيداً يا زين الدين..

الحافظي: ويمكنك أيها القائد أن تبعث طليعة من قواتك للتأكد مما أقول.. إن الأمر، لا يحتاج لأكثر من يوم واحد!

صندغون: **(مبتسماً)** لا داعي لهذا أيضاً **(يهمس في أذن تكودار، وعدد من القادة والأمراء، فيحرك هؤلاء رؤوسهم بالإقرار، يرفع صوته قليلاً)** غداً صباحاً.. سنرحل بكل تأكيد، ولكن، لقتال البرلي وسحقه قبل أن يصل إلينا، وسنرجع ثانية إلى الموصل؛ لكي نصفي معها الحساب، بعد أن نكون قد تركنا عليها جندنا لمواصلة الحصار.. أليس كذلك يا تكودار؟

تكودار: **(يحاول هو الآخر أن يكتم فرحته)** إذا سمحت أيها القائد، فسأتولى أنا قيادة هؤلاء الجند **(يشير بتباه إلى منجنيقاته الأربعة والعشرين)** إن لهذه الآلات من يرعاها، وليس غيري من يعرف كيف يتعامل معها..

صندغون: (يربت على كتفيه) لك ما تشاء.

تكودار: ومن يدري.. فقد ترجع أيها القائد، فتجد الطريق مفتوحاً أمامك..

صندغون: (وهو يهم بدخول الخيمة) لا تبالغ أيها الرجل..

تكودار: لم تعصني يوماً قلعة، أو يتمرد علي سور.. ولسوف ترى!

(ستار)

المشهد الخامس

(منتصف جمادى الآخرة، خيمة الميدان نفسها، قريباً من جامع نور الدين محمود؛ الذي تبدو منارته وجانب منه من فتحه الخيمة.. الملك الصالح يتصدر المكان، ومن حوله كبار أمرائه وقادته وموظفيه..)

الصالح: (منادياً الحاجب؛ الذي يقف عند باب الخيمة) دعهم فليدخلوا.

علم الدين: (للملك) إذا سمحت أيها الملك، (للحاجب) هل فتشتهم جيداً؟

الحاجب: بكل تأكيد.

علم الدين: لا بأس من دخولهم إذاً.

(يدخل ثلاثة من الأسرى الحلبيين، وهم على حالة واضحة من الإعياء..)

الأسرى: (معاً) سلاماً أيها الملك.

الصالح: أهلاً بكم إخواناً في الدين، (يبتسم الأسرى بارتياح ملحوظ).

علم الدين: إنه هو الذي دفع بكم إلينا.. إذاً..

أحد الأسرى: من؟

علم الدين: (بعصبية) صندغون طبعاً..

الأسير الثاني: أراد أن يحشر معنا كل الأسرى؛ الذين حصدهم في معركته مع البرلي..

علم الدين: كم يعني؟

الأسير الثاني: سبعون، أو ثمانون..

علم الدين: (بانفعال) لعبة مكشوفة.

الصالح: وما الذي جعلكم تقتصرون على ثلاثة؟

الأسير الثاني: عدل عن رأيه في اللحظة الأخيرة، ورأى أن هذا يكفي..

الأسير الثالث: لعله خشي العاقبة؟

الصالح: أية عاقبة؟

الأسير الثالث: أن ننقلب عليه، وننضم إليكم.. ثم إنه توخى أمراً يكفي أن يؤديه اثنان أو ثلاثة..

علم الدين: لعبة مكشوفة.. لقد تمرسوا على هذه الأساليب.. في اللحظات؛ التي يصعب عليهم اجتياز الجدران العالية، فإنهم ينسابون كالأفاعي، لكي يتسللوا من الجحور الضيقة.. إنني أعرفهم جيداً..

الصالح: هيا.. قولوا كل ما عندكم.. فكما أنه يعرف كيف يلدغ، فإننا بدورنا نعرف كيف نحمي أنفسنا ضد السم!

الأسير الأول: **(بحماس)** لن نسمح له أن يلعب علينا.. أو بنا..

علم الدين: **(بسخرية)** هكذا؟

الأسير الأول: ماذا يتصور؟ هل أن خيانة الحافظي تكرر نفسها في صفوف المسلمين بهذه البساطة؟ **(ينظر الصالح وعلم الدين أحدهما إلى الآخر، دون أن يجيبا)**

الأسير الأول: (مستمراً) تركناه يتخيل الأمر على هواه، فانفسح أمامه الأمل وقال ـ كمن عملت الخمرة في رأسه، مخاطباً إيانا ـ ستفعلون ما أطلبه منكم بكل تأكيد..

الأسير الثاني: وكان الزين الحافظي يجلس إلى جواره في غبطة كاملة، مثنياً على كل ما يقوله، وكان صندغون يلتفت إليه بين لحظة وأخرى.

الأسير الأول: إن الانتصار غير المتوقع، يسكر أيها الملك.. كان على وشك الانسحاب.. وجاءه (يهوذا) هذا لكي يعطيه الأخبار الحقيقية، ويمنحه فرصة

الضربة القاضية.. وهو يهيم في نشوته، انقسم الزين الحافظي إلى رجلين، وغدا الاثنان أربعة، وعبر سلسلة متواصلة من الانشطار، تحول الأسرى السبعون، أو الثمانون جميعاً، إلى ما كان يشتهيه الطاغية..

الأسير الثالث: وقال بأنه سيطلق سراحنا، وسيسمح لنا بدخول الموصل، كما لو كنا هاربين من المعركة.. وها هنا في المدينة التي أعياها الانتظار، نضرب الضربة الماكرة؛ التي يشتهيها الرجل..

الصالح: ماذا؟

الأسير الأول: ننقل إليكم نبأ الهزيمة؛ التي مني بها البرلي، لكي نضعف معنوياتكم..

الصالح: (مبتسماً) هذه نعرفها جيداً.. وليس ثمة من حاجة إلى من يخبرنا بها!!

الأسير الأول: ليس هذا فحسب، إنه ملأ رؤوسنا بتعليماته، وقال: إن علينا أن نمارس دورنا بعفوية في خطوطكم الخلفية، وألا نحيطه بأية مظنة..

علم الدين: مثلاً؟

الأسير الأول: وهل غير التضخيم من شأن العدو، ونشر الشائعات المضادة بين الأهالي؛ لتدمير قدرتهم على المقاومة؟

الصالح: ولكننا سنعرف كيف نرد، ولسوف تنقلب عليه لعبته..

الأسير الأول: والله أيها الملك، لو أنه أطلق سراحنا ألف مرة، لعدنا لقتاله..

الأسير الثاني: (بشقة) إن الأمر واضح جداً.. قتال بين معسكري الإيمان والكفر.. فكم منا على استعداد؛ لأن يبيع آخرته بدنياه، بهذه الحفنة القليلة المتبقية لنا من السنين؟ الحفنة التي تتآكل بأسرع مما تتآكل حفنة الدراهم الحقيرة نفسها، من منا؟

الأسير الثالث: لقد أظهرنا موافقتنا على خطته، فقط؛ لكي نتحرر من قبضته، ونصل إليكم؛ لكي نقاتل معكم.. لقد كانت مهمة البرلي في الأساس، هي أن ندخل الموصل، ونمكنها من مواصلة المقاومة، ريثما تأتي نجدة أكبر، تقدر على مجابهة المغول.. إنه كان يعرف أن أية محاولة متهورة، تقوده إلى الانتحار، بعد أن عجز من انتظار نجدة دمشق؛ التي يقودها سنقر الرومي.. كان هدفه أن يتسلل بنجدته؛ التي لم تتجاوز الألف إلا قليلاً إلى مدينتكم المجهدة؛ لكي يمنحكم قدرات أمضى على المقاومة.. وبعدها قد يجيء الخلاص..

علم الدين: من يدري؟ لعله انسحب إلى الشام؛ لكي يعيد الكرة.. هذا إذا لم يكن قد توفي في الطريق؛ بفعل جراحه المثخنة..

الأسير الثالث: إننا نعرفه جيداً أيها القائد.. إنه على استعداد لأن يعيد الكرة عشرات المرات..

الصالح: (مبتسماً) وإذاً.. فإن صندغون قد قذف بكم إلينا؛ لدفعنا إلى الاستسلام؟

الأسير الأول: هكذا توهم.. لقد كان الحافظي إلى جواره تماماً، وأعتقد أن كل مهزوم يمكن أن يغدو واحداً آخر، مثله تماماً، يقف في طابور المذلة الطويل مطأطئاً رأسه؛ لكي يتلقى الأمر، ويمارس الخيانة!

الصالح: (وهو يشير إلى منارة الجامع النوري الشاهقة) كان عليه أن يتعلم من هذه!! إنه يراها جيداً من موقعه.. أليس كذلك؟ ولكنه لا يريد أن يتعلم.. إن القائد المجنون بالنصر، الموتور بصمود الخصم بأكثر مما كان يتوقع، لا يرى إلا ما يغذي تصوره المحموم.. إنه يرى الحافظي جيداً، أليس كذلك؟ ولكنه لا يريد أن يرى هذه المنارة العالية؛ التي تجتاز ثقل الأرض وشدها، وتتطاول في السماء، موحدة، متفردة، صامدة،

شاهدة على أن هذا الدين لن يهزم، وأن أصحابه؛ الذين ما أحنوا رؤوسهم إلا لله، لا يمكن أن ينحنوا لمخلوق كائناً من كان.. قد تقولون: إن المسلمين هزموا مراراً، وإن محاولتنا هذه.. من يدري؛ لكن هذه مسألة أخرى تماماً... إننا زائلون.. بينما الدين باق، ليس - وحاشاه - كأسطورة معلقة في الفضاء، ولكن من خلال أتباعه الذين سيواصلون الطريق.

الأسير الأول: (بحماس) نحن في رسم الخدمة أيها الملك، فمرنا بما تشاء..

الصالح: (ضاحكاً) ليس قبل أن ترتاحوا قليلاً..

علم الدين: ورفاقكم هناك؟

الأسير الأول: ماذا تعني أيها القائد؟

علم الدين: ألا يخشى عليهم؟

الأسير الأول: (بثقة) وأنّى لصندغون أن يعرف ما الذي فعلناه هنا؟ إنه لا يزال مخموراً بخيانة الحافظي.. بهذا النموذج؛ الذي أعترف بأنه التقاه في كل مدينة حاصرها، أو وطأتها قدماه.. إن ابن العلقمي؛ الذي سعى إلى تسليم بغداد، والحافظي؛ الذي يتمنى تسليم الموصل، كثيرون

ولا ريب، ولكنهم ليسوا كل المسلمين على أية حال.. إنهم مجرد دمامل متقرحة على الجسد المحموم.. ولكن هذا الجسد، كثيراً ما كان يسترد صحته، وعافيته، فيعرف كيف يفجر هذه الدمامل.. ويغسلها.. **(يدخل أحد القادة مسرعاً، وعلى وجهه ملامح الفرح.. يتقدم خطوات وسط الخيمة)**

القائد: أتسمع أيها الملك؟

الصالح: **(ينهض واقفاً، فينهض معه المحيطون به)** قل.. قل.. فإننا نريد أن نعرف **(ينظر إلى الأسرى)** إن صندغون يريدنا أن نستسلم.

القائد: لقد سحقنا قوة مغولية كبيرة أرادت اكتساح السور من جهاته الجنوبية، قريباً من باب الجسر.. قتلنا منهم ثمانين.. وجرحنا قائدهم صدر الدين التبريزي؛ الذي وجد نفسه مضطراً إلى التراجع بقوته صوب معسكرات الأعداء.. أتدري أيها الملك.. إن المنجنيقات؛ التي سهر على صنعها نجارو الموصل، تمطرهم الآن سيلاً من الحجارة والنار..

الصالح: **(وهو يربت على كتف القائد)** هذا لا يكفي..

القائد: سنفعل ما في مستطاعنا إن شاء الله..

الصالح: أقصد أن الحجارة، والنار، وحدهما لا تكفيان.. يجب أن يكون الرد أشد عنفاً..

القائد: (بحيرة) وكيف؟

الصالح: أمطروهم برؤوس قتلاهم.. لقد رمانا بأصحابنا، وقد آن الأوان؛ لكي نرميه برؤوس أصحابه!!

(تعتيم)

(خيمة صندغون قريباً من باب العراق جنوبي الموصل.. يتصدر صندغون المكان.. ويحيط به أمراؤه وقادته..).

صندغون: (للحاجب الذي يقف عند باب الخيمة) دعه فليدخل..
(يدخل صدر الدين التبريزي وهو يجر خطاه على الأرض جراً، وقد نالت منه الجراح الذي لا يزال بعضها يشخب..)

التبريزي: سلاماً أيها القائد!

صندغون: (بلهجة اللوم المبطن بالوعيد) ماذا يا صدر الدين؟

التبريزي: لقد كانت مقاومتهم فوق طاقتنا!

صندغون: (بالهدوء نفسه) وماذا في ذلك؟

التبريزي: كدنا أن نحتلّ البرج الجنوبي الشرقي..

صندغون: **(يمط شفتيه)** ثم؟

التبريزي: لو حدث ذلك، لدخلنا المدينة أيها القائد.

صندغون: **(الحركة نفسها)** وبعدئذ؟

التبريزي: بعدئذ؛ نبعث إليك من يقول لك: تفضل أيها القائد المنتصر.

صندغون: وتجيئني أنت؛ لكي تقول لي هذا، وأنت تنزف دماً؟ **(يشير إليه بازدراء ثم يصرخ)** صدر الدين! ما تصورتك جباناً إلى هذا الحد.. لقد منحتهم بفعلتك هذه سلاحاً جديداً يا صدر الدين!

التبريزي: وما الذي تريدني أن أفعله أكثر من هذا أيها القائد؟ لقد ضحيت بثمانين من خيرة رجالي..

صندغون: وتقولها، هكذا، بصراحة؟ ثمانون من زهرة المهاجمين المغول؛ الذين طوت قبضاتهم القلاع والحصون، ودكت الأسوار، يحصدون في ساعة واحدة؟ لقد منحتهم سلاحاً جديداً!

التبريزي: **(منكمشاً)** أي سلاح هذا؟

صندغون: **(ملتفتاً إلى أمرائه وقادته)** كنت أقول دائماً: إن قادتي لا يفهمون الأمور جيداً؛ لأنهم لا

يقلبونها على وجوهها. . إنهم ـ كما قلت يوماً لقائد المنجنيقات تكودار ـ ينظرون بعين واحدة. .

التبريزي: (بانفعال مكبوت) وما الذي كنت تريد أن نفعله؟

صندغون: (يرجع إلى هدوئه) تسألني عن السلاح؛ الذي منحته للصالح وأصحابه. . أليس كذلك؟ إذاً، فاعرف أن مقاومتهم ستطاول أكثر فأكثر. . إنها تدخل الآن شهرها السابع، ومن يدري، فلعلها لن تنتهي أبداً. . الآن، بدأت أدرك ما الذي يعنيه تطاول منارتهم في السماء!

الحافظي: (مقاطعاً) لا يهمك الأمر، فعما قريب، ستعرف كيف ستفعل المهمة؛ التي أرسل الأسرى الحلبيون لأدائها، فعلها، سيقوضهم من الداخل أيها القائد. .

صندغون: (غير مكترث به) هل عرفت الآن السلاح؛ الذي منحتهم إياه؟

التبريزي: نعم. . نعم. . هذا واضح. .

صندغون: الآن يبدو لك واضحاً. . وبعد أيام. . وربما أسابيع سيتضح لك أكثر فأكثر، عندما ترى موجة جديدة من الحماس تغطي مقاومتهم

العجيبة هذه.. وعندما ترى الزمن يتراكض كمياه هذا النهر، ونحن، قاعدون هنا، نتلهى بانتظار المفاجآت، ونجتر الذكريات عن انتصاراتنا الماضية، واكتساحنا للمواقع والحصون.. (**يصرخ**) صدر الدين!

التبريزي: نعم أيها القائد!

صندغون: ليس ثمة معنى لبقائنا هكذا! وأخشى ما أخشاه أن تنقلب علينا دائرة السوء.. أتدري ما الذي أريده منك؟

التبريزي: تحت أمرك أيها القائد..

صندغون: خذ معك جماعة من الفرسان، وانطلق بأقصى ما تستطيع من سرعة إلى همذان.. قل لهولاكو: إننا بحاجة إلى نجدة ملحة، وإننا لسنا مستعدين لتلقي ضربة أخرى كتلك؛ التي تلقيناها في عين جالوت.. بأقصى ما تستطيع من سرعة يا صدر الدين..

التبريزي: (**ينحني وهو يهم بمغادرة المكان متلمّساً جراحه**) حاضر أيها القائد..

(ستار)

المشهد السادس

(منتصف شعبان، خيمة الميدان في الموصل، يتصدرها الملك الصالح وحوله أمراؤه وقادته..)

شهاب الدين: (بلهجة ذات معنى) لقد نفدت الأموال أيها الملك!

الصالح: (مطرقاً لا يجيب)..

شهاب الدين: كل ما لدينا من مخزون أكلته الحرب.. والآن، فإنني أعتمد على جهود المتبرعين، ولكنها لا تسد الحاجة.. بل لا تكاد تغطي شيئاً.. إن مخازن التموين لا تحتاج إلا أن تكنس ويرش عليها الماء.. أما النقود..

علم الدين: (مقاطعاً) شهاب الدين.. ليس هذا أوان اجترار الأحزان..

شهاب الدين: (غير ملتفت إليه) إن القحط يتآكل الناس.. إنهم يتسللون إلى الصحراء لكي يموتوا هناك..

علم الدين: لو أن الأمر اقتصر على القوت والأموال، لهان الأمر!

شهاب الدين: أبداً.. فإنهما العصب والأداة.. وها إنني لا أقدر اليوم على الاستجابة للمطالب اليومية الضرورية.. إذا أردت الصراحة..

علم الدين: (بحزن) أعرف هذا يا شهاب الدين.. إنه من قبيل البديهيات، ولكن (يلتفت إلى الملك..)

الصالح: على أية حال، فإن هذا ليس وحده المشكلة.. هناك ما هو أخطر بكثير..

شهاب الدين: (بتحفز) مثلاً؟

الصالح: يبدو أنك لا تعرف شيئاً عما يجري في الهواء الطلق.. إن الحسابات، والأرقام قد حجبت عنك الرؤية..

شهاب الدين: الحق، إنني لم أعد أفهم ما تقول أيها الملك.

الصالح: (بحزن) إذا أردت الحق، فإنه لم يعد ثمة هواء طلق يا شهاب الدين!

شهاب الدين: (بدهشة) كيف؟!!

الصالح: لقد افترسه الوباء..

شهاب الدين: (مع نفسه) أعرف ذلك!

الصالح: أما في الخارج، فإن قوة جديدة تنضاف إليهم.. قوة، جاء بها التبريزي صباح هذا

اليوم.. من جهتنا، فليس ثمة أي أمل بوصول نجدة مستعجلة؛ تعيد إلى القوى توازنها المفقود.. **(يتنهد وهو يلتفت إلى قائده)** إننا نكاد نختنق يا علم الدين..

علم الدين: **(متشبثاً بالأمل)** لقد علمتنا أيها الملك كيف تخرج بنا من المآزق.. كيف تمنحنا الهواء كلما أوشكنا على الاختناق..

الصالح: هذه المرة، فالمسألة تختلف..

علم الدين: ومع ذلك، فقد حاولت.. منذ اثني عشر يوماً وابنك ـ علاء الملك ـ محتجز لديهم!

الصالح: قلت في نفسي: إن مدينتي قدمت ما فيه الكفاية.. لم يأل جندها وجماهيرها جهداً.. دفعوا كل ما قدروا على دفعه.. وها هم الآن، محاطون بالوباء والجوع.. أتدري يا علم الدين.. إنني أعرف جيداً ألاعيب صندغون.. لقد خبرته حتى النخاع، وأخشى ما أخشاه أن يتصورني مغفلاً، قليل الحيلة..

علم الدين: حاشاك أيها الملك..

الصالح: **(بحزن)** بل هذا هو الصواب.. وأغلب الظن، أنه تصورني كذلك، وإلا فمن يصدق أن إرسال

ابني؛ الذي لم يتجاوز السنوات الست من عمره، سيحل المشكلة، وسيدفع المغول إلى رفع الحصار؟ (يتنهد) لكنها الضرورات يا علم الدين، تدفعك دفعاً لأن تبدو للناس مغفلاً مهما كنت تملك من ذكاء..

علم الدين: أعرف.. أعرف.. أيها الملك.. لقد كان صندغون يتبادل كرة وهمية مع سيده هولاكو، وخيل إليه خبثه رسالة وصلته من سيده مضمونها **(إن علاء الملك - ابنك - ما له عندنا من ذنب، وإننا وهبنا له ذنب أبيه، فسيره إلينا لنصلح أمرك معه)**! فبعث بها إليك..

الصالح: لقد توهم كذلك، إنني صدقته، وبعثت بابني لكي يصلح الأمر ويرحل المحاصرون! وها هو ذا قد مضى على احتجازه لديهم اثنا عشر يوماً دون أن يحدث شيء..

شهاب الدين: (بخبث) ما الذي دفعك إلى إرساله إذاً أيها الملك؟

الصالح: (كمن يتذكر) كلا.. فالمسألة هذه المرة تختلف.. لقد أرسلني أبي إلى هولاكو عند دخوله بغداد؛ لكي أكون عربون المذلة.. لم

يكن أبي محاصراً، ولم تكن الموصل قد شبعت خوفاً وجوعاً وإعياء لأكثر من ستة أشهر.. كان مترفاً، متنعماً.. وكان يريد أن يحمي هذا الترف والنعيم، متنازلاً في مقابل ذلك عن أي شيء.. أما أنا ـ حيث لا يزال جرحه ذاك ينزف في أعماقي ـ فلن يكون بمقدوري أن أعيد الدور.. لقد أرسلت طفلاً لا يعرف كيف يقول نعم.. أو لا.. شهاب الدين، لقد بعدت كثيراً عن الموضوع.. لم أجبك على سؤالك إلى الآن.. أليس كذلك؟

شهاب الدين: (متراجعاً) لا يهم أيها الملك، فكلنا نعرف إخلاصك، ولكنني أردت فقط أن أعرف..

الصالح: (مقاطعاً) إذاً، فهاكه.. عندما تقفل أمامك الأبواب.. عندما تجرب كل الدروب فتجدها في نهاية الأمر مسدودة في وجهك.. عندما تجد شعباً بكامله ينتظر على يديك معجزة الخلاص، وأنت تدرك جيداً أنه يستحيل عليك أن تقدمها له.. عندما تجد جندك ـ الذين أحبوك حتى العظم ـ يتساقطون جوعاً ومرضاً وإعياءً.. يموتون أمام عينيك وهم يبتسمون حتى آخر لحظة، بانتظار شيء ما يوازي

محبتهم، فإنك تضطر يا شهاب الدين إلى أن تمارس نوعاً من. . لنسمه الخداع مع الذات. . نوعاً من التصديق بحدوث المعجزة. . ولكن ذلك يجب ألا يكون على حساب الآخرين؛ الذين استنزفوا تماماً. . بل على حسابك أنت. . فإنك ستفعل بكل تأكيد. . وهكذا وجدتني مضطراً لأن أدفع ابني، وأنا أعرف أنه سيقتل، كما أعرف أنها لعبة مكشوفة، لكنني دفنت رأسي في الوهم. . في التضحية. . انتظاراً. أصحابي أملاً. . انتظاراً. . ولكي تظل الابتسامة معلقة على شفاههم، وهم يموتون. . شهاب الدين. . إذا كان أبي قد فرط بي؛ لكي يكسب هو شخصياً، فإنني ضحيت بابني؛ لكي تصمد مدينتي يوماً آخر على الأقل. . وها أنت ذا ترى اثنا عشر يوماً، كانت تمنح مواطني وجندي في كل يوم شيئاً من القدرة على الانتظار، قائلين: ما دام أنه قد صدق، فلا بد أن نصدق نحن الآخرين!

علم الدين: (بإشفاق) حسبك أيها الملك. . فإن نوايا القادة تكون مكشوفة إلى هذا الحد. . نقية إلى هذه الدرجة. . مفتوحة قبالة جماهيره كالسماء الزرقاء. . فإنه يكون من العبث. . من نكران

الجميل،أن يُسأل عن قراراته مهما كانت غامضة محيرة. . إنها أيها الملك، تتدفق من بئر مترعة بالحلاوة والنقاء، فعلام السؤال؟

الصالح: كلا يا علم الدين. . إن شهاب الدين قد منحني الفرصة لكي أخرج العناء؛ الذي أجهد أعصابي منذ أعطيتهم ابني علاء الملك. . لقد تحررت إذاً بعض الشيء، رغم أنني ـ ولا أكتمك القول ـ بدأت أشعر بالذنب!

علم الدين: الذنب؟

الصالح: إنه طفل لا يعرف كيف يقول: نعم. . أو. . لا. . ومع ذلك، فقد دفعت به إلى مصيره المشؤوم. .

علم الدين: ومن قال بأنهم سيلحقون به الأذى؟ اطمئن أيها الملك، فهم لم يبلغوا بعد حافة الكراهية لكل ما يمس الإنسان رجلاً كان أم طفلاً. . على الأقل، حفاظاً على مصلحتهم. . على سمعتهم!!

الصالح: (يضحك) سمعتهم؟! إنهم سيؤذونه. . أؤكد لك. . إن لم يكن الآن، فبعد أيام. . أو أسابيع. . إن وقفة الموصل في وجوههم أكثر من نصف عام، ستدفعهم إلى الجنون، إن لم تكن قد دفعتهم فعلاً. . ولن يميزوا يومها ـ وهم

يمارسون انتقامهم المدوّم - بين كبير وصغير.. لقد تحدتهم الموصل.. عرقلت اندفاعهم طويلاً، وهذا يكفي لعقابها.. ولسوف ترى يا علم الدين.. ولكن لا بأس!
(يدخل الحاجب ويهمس في أذن الصالح ثم ينسحب)

الصالح: **(ينهض قائماً فينهض معه قادته وأمراؤه)** ها قد جاء دوري.. كنت أعرف ذلك جيداً..

علم الدين وشهاب الدين: (معاً) ماذا أيها الملك؟

الصالح: إن صندغون يعرف أن المدينة أصبحت أخيراً مجرد اسم!! وأن الذين يدافعون عنها، ليسوا مقاتلين بمعنى الكلمة، ولكنهم أشباح استنزفها الجوع والوباء والخوف والإعياء.. أشباح قاومت طويلاً، وانتظرت كثيراً، فما أعانها أحد.. لقد نادت فما سمع أحد نداءها..

علم الدين: (بتوجس) ماذا أيها الملك؟

الصالح: إنهم يريدونني أنا هذه المرة!

علم الدين وشهاب الدين: (معاً) أنت؟

الصالح: وقال صندغون: بأنني إن لم أفعل، فلسوف يدخل البلد، ويعمل فيه السيف (يتنهد).

علم الدين: وستفعلها؟!

الصالح: وماذا تظن يا علم الدين؟! إنها فرصتي لكي أمنح المدينة؛ التي أحبتني وأحببتها آخر ما أستطيع، ولو من قبيل خداع النفس؛ الذي حدثت عنه شهاب الدين قبل قليل.. لا بد أن أفعل شيئاً.. وها أنت ذا ترى.. فإن عدم خروجي يعني المجزرة، بكل تأكيد.. فإنه لم يتبق ما يقف في وجوههم أو يلوي أذرعتهم.. كان ذلك زمن يا علم الدين.. أما اليوم، فأنت تعرف ذلك جيداً.. ليس ثمة درهم واحد، ولا رغيف من الخبز.. أليس كذلك يا شهاب الدين؟ ثم ها هو ذا الوباء يشدد قبضته على جندي..

علم الدين: (باستنكار) وإذا خرجت، فهل سيغير ذلك من الأمر شيئاً؟

الصالح: إن الذي كتبه الله لهو المكتوب.. ولكننا مع ذلك، يتحتم علينا أن نأخذ بالأسباب.. هكذا علمنا رسول الله..

علم الدين: هل سيغير خروجك شيئاً أيها الملك؟

الصالح: ولم لا؟ ألا يمكن أن يخلص المدينة من الذبح؟

علم الدين: ما الذي تقصد؟

الصالح: سأبذل جهدي لكي أدفع عنها هذا المصير..

علم الدين: ولكنهم لا يُؤتمنون أيها الملك.

الصالح: (بحزن) أعرف ذلك.. أعرفه جيداً.. ولكنني، يجب أن أواصل الطريق حتى نهايته.. إنه لم يعد بمقدور الموصل أن تقاوم يوماً آخر يا علم الدين.. لقد اعتصرت آخر ما في جعبتها.. وهي الآن، تنتظر الحكم، فإذا لم أخرج، ذبحوها عن آخرها.. إنني أعرف ما يدور بخلدك، ولكنني أقول في نفسي: إذا كان في خروجي هذا احتمال واحد من مئات الاحتمالات لحقن قطرة واحدة من دم مسفوك.. فعلت.. غير نادم ولا متردد.. لقد بدأت الطريق، ويتحتم أن أقطعه حتى النهاية..

(تعتيم)

(خيمة صندغون، حيث يرى جالساً هناك يحيط به قادته وأمراؤه.. يتقدم الحاجب من يهمس في أذنه..)

صندغون: دعهم فليدخلوا

(يدخل الملك الصالح متلفّعاً بالملابس البيضاء ويصحبته حشد من الأمراء)

صندغون: ها قد جئت أخيراً!!

الصالح: (لا يرد)..

صندغون: أما كان بمقدورك أن تجنّب مدينتك هذا العناء؟

الصالح: (لا يرد)..

صندغون: لقد أخرت اندفاعنا.. كان يجب أن تعرف أن أمامنا طريقاً ممتداً، وأن لدينا حساباً طويلاً مع المسلمين، نريد أن نصفيه!

الصالح: (بصوت متيبس) صندغون!! ما تقوله أعرفه جيداً؛ لأنني صنعته بنفسي، ولن أكون رجلاً إن تبرأت مما صنعته يداي.. ولكنني أسألك..

صندغون: (بدهشة) ماذا؟

الصالح: أسألك عن ابني.. وأرجو أن تكون عند كلمتك..

صندغون: أوه.. علاء الملك.. أليس كذلك؟

الصالح: (بنفاد صبر) نعم يا صندغون..

صندغون: اجلس قليلاً لكي ترتاح.. ولسوف أخبرك..

الصالح: لن أجلس قبل أن أطمئن عليه..

صندغون: (مبتسماً) لقد ذبحت مدينة بكاملها، ثم ها أنت ذا تجيء لكي تطمئن على ابنك! ماذا تسمي هذا أيها الملك؟

الصالح: (بحزن) لك أن تسمه ما تشاء.. إن المهزوم لا يستطيع أن يسمي، لأن كل ما سيقوله هراء في سمع المنتصر..

صندغون: (بالابتسامة نفسها) ها، إنك تعترف أخيراً!

الصالح: (شارداً) بم؟

صندغون: بالهزيمة طبعاً!!

الصالح: (يتنهد) إنك تراها بعينيك ياصندغون، فهل بمقدوري أن أغير منها شيئاً؟! ولكنني أسألك عن ابني..

صندغون: إذا شئت أن نستبدلك به، فعلنا..

الصالح: (بشيء من الأمل) يعني أنه..

صندغون: (مقاطعاً) موجود بكل تأكيد.. نحن عند كلمتنا أيها الملك..

الصالح: (محاولاً أن ينتزع ابتسامة) أعرف ذلك أيها القائد..

صندغون: (محاولاً أن يتجاهل) ولسوف يتأكد لديك ذلك، (يصفق فيدخل الحاجب) جئني بعلاء الملك!

الصالح: أعده إلى المدينة، ولسوف أحل محله..

صندغون: بالتأكيد أيها الملك.. بالتأكيد (بخبث)، ولكن، ليس قبل أن تطمئن على ما هو أهم منه بكثير..

الصالح: ماذا؟

صندغون: مدينتك التي يخنقها الحصار..

الصالح: ليس الحصار وحده يا صندغون.

صندغون: (**يضحك**) أظنك تريد أن تقول..

الصالح: (**مقاطعاً**) هنالك أشياء كثيرة قد لا تدركها، وأنت قاعد هنا في خيمتك!!
(يدخل علاء الملك.. يجيل عينيه في أنحاء الخيمة، وما تلبث أن تقع عينه على أبيه..)

علاء الملك: (**بلهفة**) أبتاه.. (**يهرع إلى الصالح ويلثم يديه**)..

الصالح: (**يربت على كتفه بحنان دون أن يقول شيئاً**)..

صندغون: لم تقل لي أيها الملك..

الصالح: (**بشرود**) عم؟

صندغون: بعد أن اطمأننت على ابنك.. وتأكد لديك صدق كلماتي.. ألا تريد أن تطمئن على المدينة؟!

الصالح: لقد جرنا الحديث ياصندغون.. نسيت أن أقول لك: إنني ما جئت إلا من أجل هذا..

صندغون: يعني ليس من أجل أن ترى ابنك؟

الصالح: عندما بعثت إلي تطلبني، لم يدر بخلدي، أو خلد أي واحد من رجالي، أنك تسعى لكي تمنحني بعض السلوى بلقاء ابني والاطمئنان عليه.. إنني أعني ما أقول أيها القائد.. ولنكن صرحاء، ولا داعي ـ البتة ـ للالتفاف حول الكلمات وتضييع الوقت.. إنني ما جئتك إلا من أجل مدينتي!

صندغون: حسناً إذاً، فلندخل في الموضوع، ولكنني لا زلت أقول: إنك جئت متأخراً..

الصالح: سألتك أن نسعى إلى هدفنا بسلوك أقرب الطرق.. إن الوقت لا يتسع للدوران..

صندغون: (مستمراً) إن الموصل، مكشوفة أمامنا تماماً.. وإنني أعرف جيداً ما الذي يجري فيها..

الصالح: (بنفاد صبر) فلماذا بعثت إذاً في طلبي؟

صندغون: قلت في نفسي: امنحهم يا صندغون فرصة أخيرة!

الصالح: هيا إذاً.. قل.. ولسوف تتلقى جوابي.. ولن أطيل عليك.. نعم.. أو.. لا.. إنني في وضع لا يمنحني بينهما أي خيار آخر..

صندغون: (وهو يحرك كفه على ذقنه بهدوء) إن مشكلتك،

أنك متفائل أكثر مما يجب! ولقد أعيانا تفاؤلك أيها الملك..

الصالح: (بدهشة) لا أفهم ما تقول!!..

صندغون: الآن، ليس ثمة خيار على الإطلاق!

الصالح: **(يحدق فيه دون أن يقول شيئاً)**..

صندغون: يعني أنك إذا أردت أن تخلص مدينتك من الذبح، فارجع إليهم وقل لهم أن يفتحوا لنا الأبواب.. مرهم بذلك.. وأعلمهم بأن صندغون، سيمنحهم الأمان إن فعلوا.. وإلا..

الصالح: **(مقاطعاً)** أعرف ما ستقول يا صندغون، فلا داعي لذلك، لأنني على استعداد لقبول الأمان، ونقله إلى الموصل.. ولكن **(يصمت)**.

صندغون: قل أيها الملك، فما دمنا وضعنا خطواتنا على بداية الطريق الصحيح، فلا بأس أن تقول كل ما عندك..

الصالح: (بتردد) في النفس شيء أيها القائد..

صندغون: لا أفهم تماماً..

الصالح: أريد أن أطمئن أكثر على الأمان الذي ستمنحه الموصل.. أنت تعرف أن المسألة ليست صفقة

سهلة تكفي فيها الكلمات والتواقيع.. إنها مصير آلاف من مواطني الذين أحببتهم وأحبوني.. إنني أريد أن أحظى بقدر من الثقة.. من اليقين.. لكي أرجع، وأنا قرير العين..

صندغون: بم تريد أن أقسم لك؟ إنني مؤمن مثلك أيها الملك، ولكن وفق قناعتي الخاصة.. أتريد أن أقسم لك بالرب، بالروح القدس؟

الصالح: (**بالتردد نفسه**) والله.. ما أدري.. ما أقوله.. لك.. يا صندغون.. لو أن الأمر يتعلق بي شخصياً، لما أطلت معك.. ولقد رأيتني جيداً، أسعى للوصول إلى الهدف عبر خط مستقيم.. ولكنه يتعلق بمصير مدينة بكاملها..

صندغون: (**بغضب مكبوت**) لو أنك سلكت الطرق المستقيمة منذ البدء، لما بلغت بمدينتك هذا المصير الذي تخشاه..

الصالح: هذه مسألة أخرى..

صندغون: بل هي عين المسألة (**بنفاد صبر**)، على أية حال، إنني أريد أن تعطيني جوابك الأخير.. لقد تحدثنا بما فيه الكفاية..

الصالح: (**بحزن**) سأرجع إليهم ياصندغون.. سأرجع إليهم.. ولكنني أريد ضماناً..

صندغون: ستحمل معك منشوراً بالأمان، يتضمن القسم الذي تطلبه.. هذا هو كل ما عندي..

الصالح: (مع نفسه) لا أقصد هذا، (يرفع صوته) ولكن لا بأس..

صندغون: هل ثمة شيء آخر؟

الصالح: بكل تأكيد..

صندغون: ماذا؟

الصالح: (مشيراً إلى علاء الملك) ابني!

صندغون: أوضح أيها الملك، فإنني لا أفهم ما تقصد..

الصالح: سيرجع معي طبعاً..

صندغون: (يبتسم) في هذه المسألة، يؤسفني أن أرفض طلبك.

الصالح: (قلقاً) لماذا؟

صندغون: سيظل ابنك معنا..

الصالح: ولم؟

صندغون: الأمر واضح جداً.. نريد أن نطمئن تماماً، على وفائك بالتعهد؛ الذي ستقطعه على نفسك..

الصالح: أنا؟

صندغون: ولم لا؟ إن الذي يقف بوجهنا هذه الأشهر

الطوال.. يتحدانا بقدراته المحدودة، يمكن أن ينقلب علينا مرة أخرى ويواصل التحدّي، إننا.. إننا نعرف خامات الرجال جيداً أيها الملك..

الصالح: ولكنك تعرف ما الذي يجري في الموصل يا صندغون.. أنت الذي قلت ذلك، وإلا ما بعثت في طلبي، ولما جئتك بدوري!

صندغون: مع ذلك.. مع ذلك..

الصالح: وإلام سيظل محتجزاً لديكم؟

صندغون: من هذه الناحية اطمئن.. سوف نأتي به معززاً مكرماً؛ لكي نسلمه إليك لحظة دخولنا الموصل..

الصالح: (بتوجس) ولكن..

صندغون: لقد ضمنت أيها الملك حياة الآلاف من أصحابك، فكيف لا تضمن طفلاً عمره ست سنين؟

الصالح: **(وهو يسحب ببطء يده الملقاة على كتف ابنه ويهم بمغادرة المكان)** لا حول ولا قوة إلا بالله!

(ستار)

المشهد الأخير

(الثالث من شوال، دار المملكة المطلة على نهر دجلة.. وتبدو من مدخلها الغربي الواسع جوانب من مدينة الموصل، خالية تماماً، وقد تهدم بعضها.. أما الأسوار، فنلمحها وقد أزيلت تقريباً.. صندغون يقف عند المدخل، يحيط به حشد من الأمراء والقادة، ونرى من بينهم تكودار، وصدر الدين التبريزي، والزين الحافظي، وعدداً من أهالي المدينة..)

صندغون: (بقلق) أخشى أن يكون قد تسلل إليهم ثانية..

تكودار: من؟

صندغون: ومن غير أصدقائه المماليك..

التبريزي: لقد أحكمنا الرقابة جيداً على مخارج المدينة ومداخلها أيها القائد، ولن يكون بمقدور أحد ـ كائناً من كان ـ أن يفلت من قبضتنا..

صندغون: مع ذلك.. مع ذلك..

(يدخل الصالح بادي الإعياء مغموماً.. ينظر أفراد الحاشية بعضهم إلى بعض بدهشة ممتزجة بالفرح..)

الصالح: لا داعي للقلق يا صندغون.. ها أنا ذا قد جئتك..

صندغون: (**يتراجع خطوتين دهشاً هو الآخر**).. ولكن..

الصالح: ها أنت ذا ترى، (**يشير إلى المدينة المهدمة المهجورة**) لم يتبق شيء يحرص الإنسان عليه.. تسعة أيام، وأنتم تحصدون رؤوس الرجال والنساء والأطفال.. انظر جيداً.. لم يكد يبقى شيء اسمه الموصل.. لقد تركتموها بلاقع يا صندغون.. والذين أفلتوا من سيوفكم، يهيمون الآن على وجوههم في الجبال والمغارات بانتظار الموت..

صندغون: (**محاولاً أن ينتزع ابتسامة**) كنت تعرف هذا جيداً، ومع ذلك اخترت أن تقف في وجوهنا.. يوم بشهر أيها الملك (**يضحك**).

الصالح: هذه مسألة تحدثنا عنها بما فيه الكفاية، في خيمتك هناك..

صندغون: بل هي جوهر الموضوع..

الصالح: وكلمتك أيها القائد؟

صندغون: كلمتي هي أن أنفذ أمر سيدي هولاكو، وأن أمضي إلى أطراف العالم..
(**يهز أفراد الحاشية رؤوسهم مؤيدين**)

الصالح: (بعصبية مكبوتة) لقد نقضت الكلمة يا صندغون.. أقسمت بالرب وبالروح القدس إنك ستدخل المدينة سلماً؛ إذا أسلمت إليك قيادها.. منحتها الأمان فاطمأنت إليك.. انظر جيداً.. لقد دفنت الروح القدس تحت الأنقاض، ذبحتها بسكين الحقد!

التبريزي: اعرف كيف تتكلم أيها الملك!

الصالح: (غير ملتفت إليه) لقد كذبت علي أيها القائد..

تكودار: (يتقدم خطوة وهو يتحسس سيفه) أتسمح لي أيها القائد؟ لقد تجاوز الحدود..

صندغون: (مشيراً إليه أن يتراجع) ليس الآن، فتلك مسألة سأبت بها فيما بعد، (ينظر بازدراء إلى الصالح) وماذا بعد أيها الـ..

الصالح: لم أعد ملكاً يا صندغون.. يمكنك أن تدعوني باسمي.. ركن الدين!

صندغون: (يضحك) ركن الدين.. لقد خدعك الاسم واللقب.

الصالح: لا أفهم ما تقول!

صندغون: أردت أن تدفع عن مملكتك، وتحمي دينك.. أليس كذلك؟

الصالح: لو كنت مكاني.. أما كنت ستفعل الشيء نفسه؟

صندغون: الرجل العاقل ـ يا ركن الدين ـ هو الذي يعرف كيف يزن الأمور.. يجمع ويطرح.. ويحسب الخسائر والأرباح، ثم يقرر.. ما من أحد ابتلي بنا، وأختار أن يقف في وجوهنا؛ إلا انتهى به الأمر إلى الخسران.. كان يجب أن تعرف ذلك جيداً..

الصالح: إنني أستحلفك يا صندغون، لو كنت في مكاني، ماذا كنت فاعل؟ إن الأمر ليس فيه خيار، والرجل الذي لا يدافع عن أرضه ودينه ليس برجل..

صندغون: دعنا من هذا، وقل لي بصراحة، هل كان في نيتك أن تتسلل إليهم مرة أخرى؟

الصالح: من؟!

صندغون: (**مشيراً إلى الغرب**) من غير المماليك؟

الصالح: لو أردت أن أذهب إليهم لذهبت.. ولكن، ما الجدوى، وأنت ترى ما فعلتموه بمدينتي وأصحابي؟

صندغون: (**كمن يتذكر**) لقد أراد قائدك علم الدين، أن يفعلها في اليوم الثاني أو الثالث لدخولنا.. لا أذكر.. فماذا كانت النتيجة؟ قل له يا تكودار..

تكودار: **(ضاحكاً)** إنه مصلوب الآن عند باب سنجار.. ينتظر نجدة المماليك!!

الصالح: **(بحزن)** في الأيام الأولى، كان ثمة مبرر ما للذهاب.. أما الآن.. **(يتنهد)** رحمك الله يا علم الدين، لقد كنت غاضباً علي؛ لأنني قبلت أمان المغول!

تكودار: ليس من مصلحتك يا ركن الدين أن تتحدث في هذه المسألة..

الصالح: **(محاولاً أن ينتزع ابتسامة)** لأنها أوضح من أن يتحدث عنها أحد، **(يلتفت إلى صندغون)** لماذا يا صندغون؟ ألم نتفق على كل شيء؟ ألم نفتح لكم الأبواب على مصاريعها؟ هل كان ثمة ضرورة لهذه المجزرة؛ التي أتت على أرواح النساء، والأطفال، والشيوخ؟ لقد خرجوا يا صندغون مطمئنين إلى وعدك.. أما المقاتلون.. ماذا أقول؟ لم يعد بمقدورهم أخيراً أن يحركوا أيديهم.. وأنت تعرف ذلك جيداً..

صندغون: **(مصعراً خده)** كنت أريد أن أجعلها تذكرة للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، كيلا يعودوا لمثلها مرة أخرى!

الصالح: هذا حق أيها القائد..

صندغون: ماذا تقصد؟

الصالح: بعد اليوم.. مجنون من يثق بكلمتكم..

صندغون: **(صارخاً)** كفى يا ركن الدين..

الصالح: ألست أنت الذي أردت أن تقول هذا؟ إن الأفعال تتكلم يا صندغون، بل إنها، وحدها؛ التي تتكلم..

الحافظي: **(يتقدم من صندغون، ينحني، ويهمس شيئاً في إذنه)**

صندغون: لا يا زين الدين.. إنها الأوامر على أية حال، وعلي أن أنفذها.. **(يتراجع الحافظي)** ركن الدين..

الصالح: **(مطرقاً لا يرد)**

صندغون: لقد نسيت أن تسألني عن أمر يهمك كثيراً.. يبدو أن هزيمتك قد أنستك أشياء كثيرة..

الصالح: لا يا صندغون.. فإنني ما نسيت شيئاً.. وإنني أعرف جيداً عم تتحدث.. ولكن المصيبة إذا عمت، وجد المرء نفسه يتجاوز خصوصياته.. أموره الصغيرة..

صندغون: **(باستفزاز)** حتى لو كان ابنه؟!

الصالح: **(بحزن)** بكل تأكيد.. لقد غسلت يدي منه، مذ أبقيته عندكم وعدت إلى الموصل.. بل قبل ذلك بكثير.. لحظة وافقت على تسليمه إليكم..

صندغون: **(وهو يمسد لحيته)** ولم إذاً؟

الصالح: الآن تسألني عن ذلك؟ كأنك لا تعرف ما الذي دفعني إليه؟ لقد كانت مدينتي ـ يا صندغون ـ أعز علي من كل شيء..

صندغون: هذا صحيح، فلو أنك قدرت على أن تمد نظرك جنوباً، لرأيته جيداً هناك.. لقد فعلنا ما يشبع هذه الحاجة في نفسك **(ينظر إلى أفراد حاشيته بخبث)** قل له يا صدر الدين!

التبريزي: **(وهو يمط كلماته)** قسمناه قسمين...

الصالح: **(يجفل ويهم بالكلام ثم يؤثر الصمت، ويطرق)**..

التبريزي: بالتساوي تماماً يا ركن الـ..

صندغون: **(ضاحكاً)** ثم ماذا؟

التبريزي: شقة مصلوبة... في الجانب الأيمن.. وأخرى.. في الجانب.. الأيسر.. من النهر!

صندغون: أرأيت أيها الـ.. أيها الملك.. كما أردت تماماً.. جعلناه قربانا للمدينة؛ التي أحببتها أكثر من أي شيء، وزرعنا القربان بالعدل تماماً.. نصف هنا.. ونصف هناك..

تكودار: وها إنك ترى كم نحن عادلون؟ قائدك علم الدين ينتظر في باب سنجار قدوم المماليك دون أن يستفزه أحد.. وابنك عند باب الجسر يفدي بجسده الغض جانبي المدينة.. إننا..

الصالح: (يصرخ) كفى..

تكودار: (يتحرك للرد على الصالح)..

صندغون: دعه يا تكودار.. دعه.. فإن حسابه لم يحن بعد..

الصالح: (يتفكر) أتدري يا صندغون، لماذا قاومت الشهور الطوال؟

صندغون: (بغضب) ها أنت ذا تعود إلى المسألة؛ التي أصبحت بحكم المنتهية

الصالح: أبداً يا صندغون.. إنها ليست منتهية كما تتوهم.. لقد قاومت، ليس من أجل حماية هذا الطفل وحده، ولكن، من أجل أطفال المسلمين كلهم.. كنت أعرف جيداً أنكم اندفعتم في العالم، ليسوا كفاتحين يملكون في اللحظات

الصعبة القدرة على الاختيار.. ولكن.. أتدري.. لقد اكتسح المدينة منذ أسابيع، الوباء الذي لا يعرف كيف يميز بين رجل أو طفل أو امرأة.. بين مقاتل ومسالم.. لا يملك خياره، وهو يحوم فوق الرؤوس لكي يقطفها.. أستطيع أن القول يا صندغون: إنكم لا تختلفون عنه بشيء.. بم؟ إذا كنتم أنتم أيضاً تجتاحون بالتعميم نفسه.. بالرغبة الصماء في القتل، جماعات الناس؟! على أية حال، فإنني لست وحدي الذي يقول هذا، وبمقدورك أن تسأل آلاف المسلمين؛ الذين اجتحتم ديارهم، ولسوف تتلقى الجواب اليوم، وغداً، وبعد غد، كضربات تتنادى في المدى بين المشارق والمغارب.. إنه الوباء!!

صندغون: (وهو يتحسس سيفه) كفى.. وإلا..

الصالح: سأسكت.. بكل تأكيد.. ولكن ما فعلته مدينتي معكم، سيظل يتكلم.. يصرخ.. حتى يقلق صراخه وجدان الناس.. سيعلمهم كيف يحصنون أنفسهم ضد الوباء.. يومها، لن يكون لكم متسع في هذا العالم.. أعرفت لماذا قاومت الشهور الطوال؟

تكودار: لقد طفح الكيل أيها القائد.. فماذا تنتظر؟!

صندغون: (بخبث) ليس ذلك بيدي يا تكودار..

تكودار: (بدهشة) ماذا تقصد أيها القائد؟!!

صندغون: **(يجيل عينيه في أصحابه بزهو)** سنصطحبه إلى هولاكو.. لكي نزف إليه البشرى، ونمنحه الفرصة لكي ينتقم بنفسه.. تلك هي أوامره يا تكودار.. لقد بلغني أن غضبه على هذا الرجل **(يشير إليه بازدراء)**، جاوز كل حد، **(للتبريزي)** أليس كذلك يا صدر الدين؟

التبريزي: بكل تأكيد أيها القائد.. إنه لا يرتاح لهذا الصنف من المسلمين..

صندغون: هذا واضح طبعاً.. إنهم يقفون بوجه إرادته، ويعرقلون مهمته الكبرى..

الحافظي: حجرات عثرة على طريقه الطويل، إلى حافة العالم..

صندغون: لكننا نعرف كيف نزيحها في الوقت المناسب؛ لكي يمضي سيدي إلى هدفه.. أليس كذلك؟

القادة والحضور جميعاً: بكل تأكيد أيها القائد..

صندغون: صدر الدين!

التبريزي: سيدي!

صندغون: لنتهيأ للرحيل هذا اليوم بالذات.. بعد ساعة أو ساعتين، أريد أن يكون كل شيء جاهزاً.. هل فهمت؟

التبريزي: (ينحني وهو يغادر المكان) كما أردت أيها القائد..

صندغون: (لتكودار) احتجزه يا تكودار هنا ريثما نرحل..

تكودار: (ينحني ويتجه مع اثنين من جنده لاحتجاز الصالح) هيا أيها الرجل.. هيا..

الصالح: (وهو يغادر معهم المكان) إنّا لله وإنا إليه راجعون..

تعتيم

الراوي: بعد أقل من شهر، وصل الجيش المغولي بقيادة صندغون إلى حيث يقيم هولاكو في همذان، وبصحبته الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن بدر الدين لؤلؤ.. كان هولاكو غاضباً جداً عليه، فطلب أن يدهنوا جسمه بسمن الأغنام، ثم يلفوه باللباد، ويحكموه جيداً بالحبال، ويلقوا به في شمس الصيف القائظ.. فاستحال السمن بعد أيام إلى ديدان، أخذت تتكاثر وتتكاثر، وهي تلتهم جسم الرجل؛ الذي اختار أن يجابه الوباء، حتى فاضت روحه بعد شهر من ذلك البلاء.. رحمه الله..

(ستار)

فهرس الموضوعات